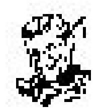
یوسف السباعی

نائبِ عزرائیل



• نائب عزرائيل

الإهداء

الى سيدنا عزرائيل .... الجميل ! !

هل سبق لغيرى من البشر أن أهدى لك كتابا ؟ ...

هل سبق لسواى من المخلوقات أن صب فى أذنيك غزلا وتسبيبا ؟

هل قال لك أحد قبلى .. مثلا : « أحسن الأيام يوما أرجعك ؟ » .

قل الحق ولا تخجل .. طبعا لا ... فما أهدى لك البشر سوى لعناتهم ... وما صبوا فى أذنيك سوى جام غضبهم ... وما نعتوك بأفضل من « مفرق الأحباب وهادم اللذات » .

– ما رأيك إذا فى محبكم الجديد ... وعاشقكم الأوحد ؟

– لا تظن بقولى سخرية .. فما حاولت مرة أن أسخر من بشر ضعيف .. فما بالك بملك الموت العاتى الجبار ! ! ولا تظن بقولى أيضا تزلفا .. فالتزلف لايكون الا لخشية أو لحاجة .. وما كان بى من خشية منك ولا حاجة اليك .. فما أنا بمتعلق بالحياة حتى أخشاك .. وما أنا بكارهها حتى أحتاج الى معونتك .

فاذا أبعدت عن ذهنك ساخر أو متزلف .. واذا أبعدت عن ذهنك أيضا أننى مجنون -- أو على الأقل أننى لا أزيد عن بقية البشر جنونا – لوضح لك وضوح الشمس مخلص فى صداقتى .. فى دنيا عز فيها الاخلاص وأمحى الوفاء .

هذا الكتاب يا سيد عزرائيل .. أنت بطله .. فهو منك واليك .. حاولت فيه بدافع الوفاء لك أن أظهرك للبشر على حقيقتك – أو على

ما أظنه – حقيقتك .. وأن أزيل من أذهانهم تلك الصورة الشوهاء الشنعاء التي يتخيلونك بها .. ولست أدرى الى أى حد نجحت .. ولا الى أى حد قد أرضيت ...

أجل ... الى أىْ حد قد أرضيتك وأرضيت البشر وأرضيت نفسى ؟ أما عنى نفسى .. فهى راضية ، ولست أشك أن فى رضاها مظهرا من مظاهر الغرور الذى يلازم كل انسان ... أما عن البشر فلا أظن هناك انسانا استطاع أن يرضيهم .. أنا عنك .. فما رأيك ؟ !

لا تتسرع وتعلن سخطك .. واذكر أننى لم أقصد بكتابى الا انصافك وتقديرك .. وانما الأعمال بالنيات .

– لقد بذلت كل جهدى فى محاولتى تخيلك .. فان كنت قد أخطأت فى رسمك من الذاكرة .. فاعلم أن الذنب ذنبك .. فأنت مفرط فى التخفى ، مبالغ فى التنكر .. قد يكون فى هذا محافظة على هيبتك .. ولكن لم لا تجرب مرة .. فترد الينا بعض من أخذت علهم يصفونك لنا ويحدثوننا عنك ، فيبددون بحديثهم بعض تلك الظلمات التى تحيط نفسك بها .. لو فعلت ذلك لوفرت على نفسك ما قد أكون أحطتك به من أباطيل ، وما قد أكون لصقته بك من ترهات وأكاذيب .... ولكنك لم تفعل .. ولن تفعل ... فاعذرنى ان كنت قد أقدمت على اظهارك بمثل ما أظهرتك به .. فهذا هو كل ما فى وسعى ... ولا يكلف الله نفسا الا وسعها .

وهناك يا سيدى شىء آخر أخشى أن يثير حفيظتك على وأن تفهمه على غير ما قصدته .. وهى تلك المزح التى قد تلمحها بين صفحات الكتاب .. فقد تحملها محمل العبث ، ولكنى لا أشك أنك ستلتمس لى العذر اذا ما علمت أنى رجل أحب المزاح ، وأننى أرى أن المرء لا

يربح من حياته الا ساعات الضحك .. واذا ما علمت أيضا أن الانسان بطبيعته مخلوق مهرج .. وأنه لا يغريه شيء كالهزل والتهريج ... وانك اذا ما أردت منه أن يستمع اليك ، فأضحكه أولا ، ثم قل له ما تريد قوله ...

اذا ما علمت كل هذا فلا أظنك الا عاذري فى مجونى ولا أظن حديثى عنك الا من نفسك موقع القبول .. ولعلى أكون بذلك قد نلت منك الرضاء .. كل الرضاء ...

وانني يا سيدى فى انتظار اللقاء ... اما على صفحات كتاب آخر أو فى السماء .. ما بى من خشية ولا رهبة فالحياة عندي والموت سواء ! ..

والسلام عليكم ورحمة الله ...

« يوسف السباعى »

● ● ●

ناثب عزرائيل

الفصل الأول

عود من الآخرة

كنا نتدافع بالمناكب ، ونتزاحم بالأيدى .. وكان الجو خانقا حارا .. وقد تصاعدت فيه رائحة كريهة هى خليط من الأنفاس والعرق وذرات الثرى الذى أثارته الأقدام فعلق بالهواء .

وكان المنادى يصيح بصوته الجهورى بالاسم تلو الاسم .. فينتقل صاحبه شاقا طريقه بين الأجساد المتراصة المتزاحمة فينفذ من باب ضخم آخذا مكانه فى ذلك الطابور الطويل الذى يشق طريقه ال الداخل .

وسمعت اسمى يفوه به المنادى .. ولكن كان به بعض التحريف .. أو قد يكون اسما يشابه اسمى .. فلم أجب ، ولم يجب غيرى الذى قد بيكون صاحب الاسم المحرف .. وتكرر النداء .. فصحت أوضح للمنادى خطأه ... وذكرت له صحة الاسم .. فنظر الى بعين ملؤها الغيظ والحنق .. ونادى الاسم مرة ثالثة مصراع على ما به من تحريف .. فلم أجب .. فانتقل الى الاسم الذى يليه واستمر فى عمله .

وخف الزحام رويدا رويدا .. حتى وجدت نفسى أخيرا قد وقفت بمفردى ، وقد كف المنادى عن النداء بعد أن نادى آخر اسم أدرج فى الكشف الذى معه .

وتنفس المنادى الصعداء .. وقد بدا عليه التعب والاعياء .. ثم وقع بصره على فأصابته الدهشة .. وسألنى فى حنق :

– فيم وقوفك هنا .. وقد سار الجميع ؟

– انك لم تنادى اسمى ، بل ناديت اسما يشبهه .. وقد حاولت أن أوضح لك الصواب .. فأصررت على الخطأ ...

– لا يمكن أن يكون هناك خطأ فى هذا الكشف .

– وكذلك لايمكن أن أكون أنا مخطئا فى معرفة صحة اسمى لأنى أعرفه منذ عشرات السنين .

وبدا على الرجل الارتباك ، ثم أمسك بالكشف وألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم هز رأسه فى دهشة .. وقال متلعثما :

– هذا عجيب .. هذا شيء لم يحدث لنا قط .. وأخشى أن يكون قد التبس الأمر عليهم ... فأحضروك الى هنا خطأ .. اذ يخيل ان المطلوب هو صاحب الاسم الذى فى الكشف ... ولست أنت .. ولكن تشابه الاسمين جعلهم يستدعونك ويتركون الآخر .. هذا خطأ شنيع ! ! بل هو الأول من نوعه ! ! انتظر لحظة ....

وتركنى الرجل ، وأخذ يعدو الى الداخل وقد بدا عليه ارتباك شديد .

● ● ●

لم يكن هذا الجمع طلاب وظائف سيؤدون الامتحان .. ولم يكونوا مجندين ... ولم تكن الساحة كذلك فى احدى الكليات وقد نودى على الطلبة المقبولين .. ولم تكن تلك الجموع تنتظر كشف هيئة أو ما يماثله .. لم يكن هذا ولا ذاك .. وما كان هذا المشهد فى أى بقعة من

بقاع الأرض .. بل فى الواقع أنه لم يكن فى هذه الدنيا بأكملها ، بل كان فى الآخرة !

نعم فى الآخرة ! .. ولا أظن أن هناك م يبعث على الدهشة أو الشك فى تلك .. فكلنا يعرف أن الآخرة موجودة فعلا ... وما هناك من أحد يستطيع المجادلة فى ذلك ...

وكنت قد رحلت من الدار الأولى الى الدار الآخرة .. أو على حد تعبير أهل الدنيا - توفيت - منذ بضعة أيام . وكان الانتقال سهلا بسيطا .. أسهل مما يتصور المرء .. بل هو فى الواقع أسهل انتقال ممكن حدوثه .. فهو - على الأقل - أسهل بكثير من انتقال الانسان من دار الى دار فى الدنيا .. وخاصة فى هذه الأيام التى أضحى حصول الانسان على دار خالية أصعب من حصوله على الاخلاص والمودة بين أهل الأرض .. فما احتاج الانتقال الى « خلو رجل » .. أو كتابة « كنتراتو » ... أو تنظيف الدار الجديدة .. ودفع ثمن ما تلف من الدار القديمة .. ثم تأجير عربات لحمل « العفش » ... وفك الدواليب وتركيبها وتكسير الأطقم والمرايا .. ونقل عداد الكهرباء .... الخ .

نعم .. لم يكن الأمر يحتاج الى كل تلك المتاعب التى تواجه المرء عند الانتقال من دار الى دار . فى نفس الدنيا .. بل كان الآمر من السهولة بحيث لو أدرك الأحياء ذلك لما بقى منهم مخلوق فى هذه الدنيا الكريهة البغيضة .. وقد يكون هذا هو السبب الذى من أجله غرس فى الانسان خشية الموت والفزع منه ، والا خلت الدنيا من أهلها فى لمحة عين .

كان الانتقال سهلا بسيطا .. هينا لينا .. فقد انتقلت الى الدار الأخرى .. خفيفا لطيفا .. بلا « دواليب ، ولا كراكيب » .. ولا

« عفش » ، ولا أثاث ، ولا « شنط » قد كدست فيها الملابس حتى أصبحت مفرطحة منبعجة .

نعم رحلت بمفردى لا شيء يثقل كاهلى أو ينقض ظهرى .. رحلت وأنا أتذكر فى طريقى قول عمر الخيام :

عجبا للروح – ان كان يطيق   نضو سربال من الطين صفيق
وسموا لمدى النجم السحيق   ما له – تبا له – قد لزما
سجنه السفلى مذموم اللزام

لقد أحسست أننى قد نضوت سربالى الصفيق . وفررت من سجنى السفلى .. وأننى قد أخذت فى السمو شاعرا بخفة عجيبة .. حرا طليقا لا يقيدنى قيد ولا يشدنى وثاق .. روحا خفيفة بلا جسد يثقلها تسرى كالنسيم وتنفذ خلال كل شيء .. بلا حاجة الى مطية .. أو مرتقى .

انتقلت الى الدار الآخرة تاركا الجسد لأصحاب الأجساد يولولون حوله وينوحون .. ما بين مدمع فى حزنه وصادق فيه .. وان كان كلاهما سيستويان بمرور الزمن وكر الأيام .

● ● ●

ولم أنتظر كثيرا خارج الباب .. فسرعان ما أقبل الرجل الذى بيده كشف الأسماء ، وقد سار خلفه رجل وقور ، مهيب الطلعة .. واقترب الاثنان منى وقد بدا عليهما القلق .. وعرفنى أولهما بالثانى قائلا فى احترام شديد :

– سيدنا عزرائيل .

– وأحنيت رأسى ومددت يدى مصافحا وقلت :

- تشرفنا يا افندم .

ولم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى نفسى ورعدة سرت الى بدنى عندما نطق الرجل باسم عزرائيل .. رغم أنى كنت متأكد أن الرجل لم يعد له سلطان على بعد أن أصبحت فى حالة وفاة ، وماذا أخشى منه . والمثل يقول « ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها » أو « ضربوا الأعور على عينة قال خسرانة خسرانة » .

وتمالكت نفسى وتصنعت الثبات .. وتساءلت فى قلة اكتراث :

- « ايه الحكاية ؟ ؟ » .

وهز عزرائيل رأسه فى أسف ودهشة ، وأجاب مطرقا رأسه الى الأرض :

- الظاهر قد حدث التباس فى الأمر .. لقد أخطأوا فى المجىء بك الى هنا .. فلست أنت المقصود ، بل المقصود هو صاحب الاسم الذى فى الكشف .. حقيقة أن الاسمين متشابهان ، ولكن ذلك لايمكن أن يكون عذرا لارتكاب مثل هذا الخطأ .. فهو خطأ مخجل شنيع ... بل هو الأول من نوعه .. فقد يحدث أن تتأخر قليلا فى احضار شخص .. أما أن نحضر شخصا سواه ، فأمر لايتصوره عقل .

- وساد الصمت برهة .. ورأيت عزرائيل قد امتلأت نفسه بالاكتئاب والحيرة .. فشعرت بعطف عليه وأحزننى حزنه .. فأردت أهون الأمر عليه ، فقلت له :

- هون عليك .. فالمسألة بسيطة ، وجل من لايسهو . فأنا على استعداد « للصهينة » والدخول معك فى الدار الآخرة .. ما دمت سأدخلها ان عاجلا أو آجلا .. والواقع أنها تبدو لى أحسن من الدار الأولى كثيرا ،

أما الشخص الآخر فهو طبعا لا يدرى من الأمر شيئا وان درى فلا شك أنه سيحمد الله على هذا الخطأ .

وانتظرت بعد ذلك .. أن يهجم على عزرائيل ، فيحتضنني بشدة .. ويقبلني بلهفة .. شاكرا اياى على هذه الشهامة والأريحية اللتين أبديتهما متطوعا لانقاذه من ورطته .. فى الوقت الذى كان فى امكانى فيه أن أفضحه بين الملائكة .. وأطالبه بتعويض على إقلاقى وازعاجى .. ونقلى الى الدار الآخرة .. بلا مبرر ولا موجب ...

ولكن عزرائيل هز رأسه فى أسف وقال :

– ليس هذا المحل يمكن قبوله فى هذه الدار ، هنا لا يمكن « الصهينة » على الخطأ .. قد يكون هذا شيئا اعتدتم عمله فى الدار الأولى ... أما هنا ... فلا ..

ونظرت اليه من أسفل الى أعلى .. وندمت على محاولتى صنع المعروف فى غير أهله .. وساءنى منه أن يسب أهل الدنيا فى الوقت الذى يحاول فيه أحدهم – وهو أنا – أن ينقذه من الخطأ الذى وقع فيه .. وسألته فى تبرم :

– اذن فما الذى تنوى فعله ؟

ولم يجبنى بكلمة .. بل قادنى من يدى برفق .. وانتحى بى جانبا ، وهمس فى أذنى بصوت رقيق :

– ليس أمامى الا اعادتك بسرعة الى الدار الأولى ، واحضار الرجل الآخر قبل أن يكتشف أحد هنا ما حدث من خطأ .. وكل ما أطلبه منك من معوف هو أن تختبىء هنا فى سكون ودون ضوضاء .. حتى أعود اليك بعد لحظة فأذهب بك الى حيث كنت .

وكان صوته مليئا بالرجاء ، ونظراته تستثير العطف حتى لم يسعنى الا أن ألبى رجاءه وأعده بما يطلب .. وان كان الشيطان قد بدأ يوسوس لى ويحضنى على ألا أرضخ ولا أمتثل ...

أى أبله أنا حتى أدع الفرصة تذهب من يدى ...

عزرائيل .. ذلك الجبار الذى ترتجف من ذكره الأفئدة وتهلع من اسمه النفوس .. يقع فى يدى .. فأتركه يفر بهذه السهولة .. وأعفو عنه بهذه البساطة .. ألم يكن من الأفضل أن أنتهز الفرصة فأضج بالصياح وأفضحه بين أهل السماء .. أو على الأقل أساومه فى مطلبه .. وأطلب منه أجرا نظيره .

وأحسست بالكبرياء تملأ نفسى .. ولم أشعر أنى أتمنى شيئا قدر أن يرانى أهل الأرض فى هذا الموقف .. وعزرائيل المخيف الذى لايرحم .. يرجونى العودة الى الحياة .. وأنا أتأبى وأتمنع .

وعاد عزرائيل سريعا بعد فترة قصيرة ، وقد تلفح بعباءة سوداء ... ثم تأبط ذراعى .. دون كلفة كأننا أصدقاء من قديم الأزل .. وقال لى : هيا ... بنا ...

● ● ●

الفصل الثانى

فى الطريق

وسرينا فى الهواء .. هابطين الى السحب .. وأخذت أتأمل السيد عزرائيل من طرف عينى .. وأسترق اليه النظر لأفحصه من قمة رأسه الى أخمص قدميه .. فوجدته مخلوقا جميلا .. مهيب القامة ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح .. ليس به ما ينفر أو يخيف .. ولا فيه ما يثير الرعب أو يملأ النفوس ذعرا ... أجل .. لم يكن به أى شبه من تلك الصورة التى انطبعت فى نفسى من الرسوم التى حاول الانسان أن يصوره بها .. حتى لقد بدأ الشك يملأ نفسى .. ان صاحبى ليس بعزرائيل ، وأنه قد يكون أحد صبيانه ممن ارتكبوا الخطأ فى احضارى الى الدار الآخرة وقد ادعى أنه عزرائيل لكى يخيفنى ويعيدنى الى الحياة قبل أن يعلم عزرائيل بالخطأ فينزل به عقابا صارما .

وأحس صاحبى أنى أمعن البصر فيه ، فالتفت الى متسائلا عما يسترعى نظرى .. وخشيت أن أولمه بتلك الهواجس التى خالجت نفسى ، وأن أثير سخريته بتلك الصورة التى كنت أتخيله بها .. وأصابنى الارتباك ، ورأيتنى أقول له دون كثير روية ولا تفكير :

-- أين المنجل ؟

المنجل ! ! ماذا تقصد ؟

وازداد ارتباكى وقلت متلعثما :

– المنجل ! ! .. المنجل الذى تحش به الأرواح ! !

– وهنا رأيت عزرائيل ينفجر ضاحكا .. وعلت قهقهته تصم الآذان كأنها دوى الرعد أو قصف المدافع .. وانتابنى خليط من الدهشة والانزعاج وعجبت فى نفسى مما أضحك ذلك الذى ظننت به وقارا وتؤدة .. ومما قلبه الى قرد ماجن على وشك أن يغمى عليه من فرط الضحك .. وانتظر حتى تمالك أنفاسه .. وأجابنى بخبث :

– من أوهمك أن الأرواح عبارة عن « جرجير » أو « بقدونس » حتى تخيلتنا .. نحشها بالمناجل .

ونظرت اليه فى دهشة وقلت متسائلا :

– اذا فكيف تحشونها ؟ .

– أما زلت مصرا على أنها « تحش » ...

– اذا فكيف تأخذونها ؟

– المسألة غاية فى البساطة .. فيكفى أن أشير بأصبعى الى الروح لكى تترك جسدها وتتبعنى صاغرة راضية .

وهززت رأسى فى دهشة وقلت :

– شىء عجيب ! !

– ولم العجب ؟ ! وماذا يثير دهشتك !

– يثير دهشتى ذلك التناقض العجيب بين حقيقة الموت .. وبين

ما يتصوره الانسان فيه .. أتدرى أن أكبر كارثة يمكن أن يبتلى بها المرء فى حياته هى الموت .. أتدرى أن الانسان مهما بلغ من تبرمه بالحياة وكرهه لها .. تجده يتعلق بأهدابها ويخشى الموت - رغما عن تأكده أنه سيضع حدا لضيقه وبؤسه - لا لشىء الا لفرط ما يتخيله فى الموت من بشاعة ... لقد قال الانسان :

« تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب فى ازدياد » .

أتدرى لم هذه الرغبة فى الازدياد ... لأن الموت يفزعه ويروعه ... فهو يرى أن الحياة مهما ساءت خير من الموت .. وهو يرى أن ما يعلمه خير مما يجهله ...

أتدرى أى صورة يرسمها الانسان لك فى رأسه يا سيد عزرائيل ... لاتسخر منى ولا تضحك .. ولا تتهم الانسان بالسخفف ... واعذره ان كان قد أخطأ فانه لم يرك ...

أنه يتخيلك (يا سيدى) هيكلا قد أكل البلى جسده فلم يبق منه الا حطاما بالية وعظاما نخرة .. يروعك منه جمجمته ذات العينين الغائرتين كأنهما حفرتان مظلمتان .. وأنفه المتآكل .. وعظام وجهه البارزة .. وفمه الشبيه بالكهف الخرب .. وقد اتشح بملاءة بيضاء وأمسك بعظام كفه منجلا كبيرا .. ولفته ظلمة حالكة شديدة السواد .

هذا هو عزرائيل المخيف يثير الذعر فى النفوس ويبعث الهلع فى القلوب .. أترى هناك شبها بينك وبين هذه الصورة التى أوحى للانسان بها كرهه للموت وخوفه منه .

ان الانسان يا سيد عزرائيل الجميل .. واعذرنى فى هذا اللقب لأنى

أراك تستحقه .. وأراه يكفر عن تلك السيئة التى لحقتك منه يتصوره اياك على تلك الصورة البشعة .

أقول ان الانسان يستطيع أن يعتاد كل مكروه فى حياته .. الا الموت ، فهو لايعترف بأن الموت حق وهو لايوطن نفسه عليه .. ولا ينتظره كحادث لابد من حدوثه ... بل هو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا .. أما كونه يموت غدا .. فذلك ما لا يستطيع تصوره .. هو يفرض فى نفسه الخلود .. ولا يكاد يسمع أن فلانا قد مات حتى يضرب صدره بيده .. ويحملق بعينيه ويصيح قائلا « يا ساتر يا رب .. لقد قابلنى بالأمس فقط وكان صحيحا سليما .. » .. كأنه – لافض فوه – .. كان على يقين أن الموت لايقرب الأصحاء .. أو كأنه قد تخيل أن مقابلة الرجل له بالأمس تمنعه من أن يموت اليوم .. أو كان يظن أن صاحبه هو الأول من نوعه الذى يموت بمثل هذه الكيفية ..

ويسمع آخر ان فلانا قد مات .. فيصيح قائلا « يا شيخ ! ! لقد كان رجلا طيبا .. ان له أولادا محتاجين اليه » ... ويبدى منتهى الدهشة رغم كونه قد سمع من قبل بمائة رجل كصاحبه قد ماتوا رغم طيبتهم ورغم أن عندهم أولادا محتاجين اليهم .. ولكنه ... الموت .. الذى لايستطيع الانسان الا الاندهاش له .

نعم ، يا سيدى ، هو يأبى الا أن يفاجأ بالموت .. رغم كونه يعرف أن كل انسان معرض له فى كل لحظة وفى كل ظرف .... ورغم كونه يعرف أن الموت ليس له قواعد ولا قيود .. فهو يصيب الطيب والخبيث والمريض والسليم .. والطفل والصبى والشاب والعجوز ... والذى يستحق الموت ، والذى لا يستحقه ، ورغم كونه يعرف خطأ القائل :

الموت تقـاد علـى كفـه جواهر يختار منها الجيـاد
الموت لم يكن ينقاد قـط فهو يختار الجياد وغير الجياد

أجل .. لقد عودنا الموت أن يكون طائشا أحمق .. فهو زائر لا ميعاد له يزورنا بسبب وبلا سبب . وعرفنا عنه ذلك .. وبالرغم من كل هذا .. فما زارنا مرة الا وأدهشنا كل الدهشة .. وروعنا وأفزعنا وفاجأتنا رؤيته كأننا لم نسمع به من قبل .. وكأننا كنا على ثقة من أن الذى أصيب به كل من المخلدين . ولم يكن انسانا فانيا معرضا للموت فى كل لحظة كغيره من البشر .

ولكنه الموت ، يا سيدى ! ! . الموت الذى لم يستطع الانسان - من فرط ما يتخيله من بشاعته - أن يروض نفسه عليه .. وأن يفهمه على أنه حقيقة من الحقائق السهلة البسيطة .. وهذا هو أكثر ما يشقيه فى الحياة .. فهو دائم القلق والخوف .

ترى ما الحكمة فى هذا يا سيدى .. لم يخدع الانسان فى الموت فلا يفهمه على حقيقته .. لم لا يعرف أنه عملية هينة لينة وأنه انطلاق من سجن الحياة وتحرر من قيود الجسد .. لم لايدرك مبلغ ما فيه من حلاوة ومتعة فلا يعود بفزع منه ويجزع .. ولا يعود يلطم الخدود ويشق الثياب ويملأ الدنيا صياحا وعويلا .. كلما زار له الموت قريبا أو حبيبا .. لم لا يدرك أن الموت ليس من البشاعة بحيث يستحق منه هذا البغض وهذا النفور .. لم لا يدرك أن ....

- ورأيت عزرائيل يتوقف ... وشملنى بنظرة فاحصة واستغرق فى تفكير عميق .. وسمعته يهمس كأنه يخاطب نفسه :

- لقد أصبحت مخلوقا خطرا .. وانى لأرى من الجنون أن أحاول

اعادتك الى الحياة بعد أن جربت الموت وفهمت حقيقته ... ترى ماذا سينتهى الأمر بنا اذا تركتك تعود فتندس بين الناس وتنفث فيهم تلك الأفكار التى سردتها لى الآن ... لا ... لا ... من الحمق أن أعيدك اليهم ...

وبدا عليه القلق وتملكته الحيرة .. ورأيته يمد يمد يده فيحك بها رأسه ، ويستمر فى القول :

-- ولكن ماذا أفعل وأنا لا أستطيع أن أعيدك الى الآخرة لأن دورك لم يأت بعد ... أأتركك هكذا معلقا بين الحياة والموت ؟ ... ولكن من يضمن لى أنك ستستقر فى سكون دون أن تحاول الصعود الى الآخرة أو الهبوط الى الدنيا .. فتكون لى سببا فى فضيحة كبرى .

-- ولم أحاول أنا أن أقول شيئا أو أعد بشيء .. لأنى لم أتصور قط كيف تكون الحياة بين الدنيا والآخرة .. وهل يمكننى الاستقرار فيها دون أن يصيبنى الملل والسآمة .. وأنا وحيد لا يؤنس وحشتى انس ولا جان .

وخطر لى خاطر عجيب ! ! . لو أمكن للسيد عزرائيل أن يحضر لى بعضا من حوريات السماء .. أو على الأقل بعضا من حوريات الأرض ... فقد يكون فى استطاعتى أن أمكث كما يريدنى معلقا بين السماء والأرض دون أن أخشى الملل ... ودون أن أحاول ازعاجه أو فضحه حتى يحين دورى للصعود الى السماء .

وراقت لى الفكرة .. وطربت لها .. وتخيلت نفسى أول مخلوق يعيش بين السماء والأرض .. وبين الدنيا والآخرة ... تحوطنى الحور العين .. الفاتنات الساحرات .. يسهرن على خدمتى .. كأننى هارون الرشيد .. بل خير منه مائة مرة .. ان لا وجه هناك للمقارنة بينى

وبينه ... فسيكون عزرائيل فى خدمتى وطوع أمرى .. اذ يكفى أن أشعره بأنى قد أصابنى الملل ... وأهدده بالنزول أو الصعود .. حتى يرجف فزعا ويحضر لى كل ما أريد ...

وتملكتنى النشوة ... وصممت أن أعرض الفكرة على عزرائيل ... ولكننى تصنعت « التقل » ... حتى لا يظن به لهفة فيتدلل ... وحتى يعلم أن المسألة كلها ليست الا محاولة لانقاذه .

قلت فى قلة اكتراث :

– الواقع أنها مشكلة .. فلا أظن أن الاستقرار بين السماء والأرض بالشىء المحتمل .. اللهم الا فى حالة واحدة .

– وسألنى عزرائيل بلهفة :

– كيف ؟

– كيف .. قد يكون البقاء محتملا .. اذا كان هناك بعض المرغبات .. والمسليات التى يقتل بها المرء وقته .. ويصرف بها ذلك الملل الذى يصيبه .

– مرغبات .. ومسليات ؟ ! !

وأشرت برأسى ببساطة وقلة اهتمام قائلا :

– أجل .

– ولكن أى نوع من المرغبات والمسليات ؟

– شىء بسيط .. بضع حوريات ... من السماء أو الأرض .

وبدت الدهشة على وجهه وقال بصوت خفيض كأنه يخاطب نفسه :

– بضع حوريات ... يلزمهن بضع كؤوس من الخمر وأدوات طرب ورقص .

– ثم رفع صوته وهز رأسه هزات متوالية علامة الاستنكار ... وأردف قائلا :

– كلا .. كلا يا سيدى .. ستكون فضيحة بين السماء والأرض ... ثم اننى أيضا لم أتعود هذه العملية بعد .. وليس لدى أى استعداد لأن أقوم بتوريد الحوريات لا لك ولا لغيرك .

وصمت لحظة ، ثم استمر فى الحديث :

– ومن يضمن لى أنك ستكون قانعا بعد كل هذا .. وأن الملل لن يتطرق اليك .. ومن يضمن لى أنك لن تسأم تلك الحوريات فتطلب غيرهن .. وغيرهن ... لا ... لا يا سيدى .. الله بينى وبينك .. هيا بنا الى الأرض وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

وأصابتنى خيبة أمل شديدة .. ولكننى كتمتها فى نفسى ولم أدع مظاهرها تبدو على وجهى حتى لا يظننى متهافتا على البقاء ... وقلت له فى غير اكتراث :

– هيا .

وعاودنا الهبوط رأيته يلتفتالى بعد لحظة ويقول :

– على أيه حال .. أنصحك ألا تحاول أن تنشر حقيقة الموت بين الناس فان فى جزعهم منه ورهبتهم اياه حكمة بالغة .. فهو يحد من طغيانهم .. ويخفف من شرورهم وآثامهم ... ففى خشيته رادع لهم وزاجر .. فأنت ترى أولئك الذين قد اقترب منهم الموت .... وباتوا

يحسون قربه ... قذ طهرت نفوسهم ... وأصبحوا أقرب الى الخير وأميل الى فعل الحسنة من ارتكاب السيئة لا لشيء الا لفزعهم من شبح الموت .

ثم ان هناك حكمة أخرى لذلك الوهم الذى يتوهمه الانسان فى الموت ... وهى الرغبة فى المحافظة على كيان دنياكم .. ولتتخيل معى ان الناس كلهم يرون الموت على حقيقته كما رأيته أنت ... وأنهم قد أدركوا ما فيه من سهولة وبساطة .. ترى ما الذى يبقيهم لحظة على قيد الحياة ؟ .. ما الذى يحملهم على البقاء فيها واحتمال سيئاتها ومنغصاتها .. هذا الانسان الذى طبع على الشر والسوء ، والذى لايزال – رغم ما يتخيله من بشاعة الموت – يشعل نيران الحروب ... يلقى بنفسه فى أتونها ... والذى يحاول أن يدمر الدنيا بدافع أنانيته وجشعه .. ماذا تراه يفعل لو أدرك أن الموت ليس بمفزع ولا مخيف ... ماذا تراه يفعل اذا كان رغم رهبته من الموت قد ضحى بابنه وبأخيه وبكل عزيز لديه بلا أقل سبب ...

ياصاحبى لو أدرك الناس الحقيقة لخلت الدنيا من أهلها فى لمحة عين .

وصمت عزرائيل .. ورأيت فى حديثه قولا صادقا وحكمة بالغة ، ولكنى لم أرد أن أظهر له بمظهر المقتنع حتى لا يظن أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد .. فسألته فى تهكم ظاهر :

– ولم هذا الحرص على بقاء الدنيا ؟ وما الضرر فى أن تخلو من أهلها فى لمحة عين .. انى لأرى فى ذلك راحة للانسان من عناء الحياة ... وراحة لكم من عناء العمل ... اللهم الا اذا كان الغرض من بقاء الدنيا هو ايجاد عمل لكم .. كما هو الحال فى بعض المصالح

الحكومية .. لأننى فى الواقع لا أكاد أرى أى فائدة فى هذه الدنيا .. لأننا اذا حاولنا تفسيرها أبسط التفسير ، وجدناها لن تزيد على كونها : اما متعة للانسان تعقبها حسرة وجحيم يصلى سعيره فى الآخرة ، واما حسرة وزهد يعقبهما متعة فى الجنة ، وفى كلا الحالين سيصاب الانسان بالحسرة ان آجلا أو عاجلا .. وانا لنراه فى معظم الأحيان ... بفضل المتعة العاجلة .... ويرى أن عصفورا فى الدنيا خير من عشرة فى الاخرة .

أترى تفسيرا للدنيا غير ذلك .. أو لا ترى معى أن المظلوم الوحيد فيها هو الانسان ... الذى يلوح أمامه باللذات والمتع ... وتدفع فى نفسه الرغبة فيها ... ثم يطلب اليه الكف عنها والزهد فيها .. ما الحكمة يا سيدى ، فى أن تلوح له بامرأة عارية الجسد ، غضة بضة ، مكتنزة الثديين ، ممتلئة الأرداف ... وتملأ نفسه بالرغبة فيها ... فاذا هم بها .... دفعناه جانبا وقلنا له : حرام .... لاتقربها .. ابتعد عنها .. وسنعطيك عنها عوضا حوريات فى الآخرة .. وما الحكمة فى أن تحرم عليه الخمر فى الدنيا لتعطيه منها أنهارا من الآخرة ... لا ... يا سيدى ... انى لا أرى معنى لهذا الحرمان ... فاما أن ندعه يتمتع بما فى الدنيا .. بلا وعيد ، ولا تهديد ، ولا نهر ، ولا زجر .. واما أن نعطيه فى الآخرة مرة واحدة .. دون أن نعرضه لهذه التجربة القاسية .. والاختبار المر .. فإننا لسنا بحاجة الى اختباره لأننا أدرى به .

- خبرنى ، يا سيدى ، ما الذى يحزنك من أن تخلو الدنيا من أهلها فى لمحة عين ... أيسيئك أن تحال الى المعاش كغيرك من كبار الموظفين فى الدنيا ؟

- وصمت ... وانتظرت أن يبين لى عزرائيل الحكمة فى بقاء

الدنيا .. والسبب فى خوفه من أن تخلو من أهلها كما يقول فى لمحة عين .. ولكننى وجدته قد وقف فجأة وتسمر فى مكانه .. وحملق فى بعين تائهة وذهن شارد .. وضرب جبينه بكفه ... كأنه قد تذكر شيئا هاما وصاح قائلا :

-- ياالله ... لقد كنت أنسى !.

ونظرت اليه فى انزعاج ودهشة ... ترى ما هذا الذى كاد ينساه .. لابد أنه أمر غاية فى الخطورة .. فقد بدا عليه من فرط الحيرة والذهول ما جعلنى أتوجس خيفة .. وأردف عزرائيل فى صوت خافت :

- لقد كدت أنسى الموعد .

- ثم التفت الى وقد ارتسمت على وجهه أبلغ آيات السخط والتبرم ... كأننى حمل قد أثقل كاهله وأنقض ظهره ... وقال :

- لم أر من البشر ما سبب لى من الانزعاج والارتباك مثل ما سببت لى .. فكل ما وراءك معقد مربك .. لقد أفسدت على يومى .. وأنسيتنى مواعيدى .

وشعرت بالغضب يتملكنى .. فقد اتهمنى بما كان أولى أن يتهم به نفسه .. ولكن الذنب ذنبى فقد لبثت معه رقيقا مهذبا وحاولت أن أثبت له أن الانسان دائما « جنتلمان » .... ولكن الظاهر أنه لم تجد معه تلك الطريقة فما كان يجب أن أكون معه بمثل هذه السهولة .. على أية حال نحن ما زلنا فى الموضوع .... وما زال فى استطاعتى أن أريه العين الحمراء ، والتفت اليه وشملته بنظرة ازدراء من أسفل الى أعلى وصرخت فيه بأعلى صوت :

أنا الذى سببت لك الانزعاج والارتباك ... تأخذنى من الحياة دون

وجه حق .. وتسبب لى كل ما سببت من التعب والاضطراب .. وتصيب أهلى بكل ما أصبتهم به من أحزان وأشجان .. وتبح أصواتهم من فرط « الصوات » دون أى سبب .. وتغرمنا ثمن النعش والكفن وأجرة الحانوتى والفراش والتربى .. ثم تتهمنى بعد ذلك بأننى قد سببت لك الارتباك ! ! أيمكن أن أصيبك بارتباك أكثر مما أنت مصاب به فعلا .. هذا التلطيش فى أرواح العباد .. وهذا الفساد فى العمل .. أيوجد أرتباك أكثر من هذا .. من الذى أفسد على الآخر يومه وأنساه مواعيده ... ألا تدرى أنه لولا ذلك الخطأ منك .. لكنت الآن جالسا بجوار تلك الحسناء التى وعدتها باللقاء لأول مرة .. قارن يا سيدى بين وقفتى هذه معلقا بين السماء والأرض .... وقد أخذت أتجادل مع « عزرائيل » والعياذ بالله ... وبين جلستى بجوار ذلك الجسد الدافىء .. والشفاه الملتهبة .. أغلب ظنى أنها قد تنتظرنى الآن وقد أصابها الضيق والقلق لغيابى .

وصمت لحظة .. ولما هم بالحديث صرخت فى وجهه آمرا :

– أعدنى سريعا الى الأرض .. فانى لا أود أن أنتظر أكثر من ذلك ...

● ● ●

الفصل الثالث

عزرائيل العاشق

بهت عزرائيل وعلا الاصفرار وجهه - لقد أصابت حملتى عليه نجاحا عظيما .... فانفثأ غضبه وانقلب خضوعا وخشوعا .

- رويدك يا سيدى رويدك .. اننى ما قصدت أن أثيرك أو أغضبك .. انى فى الواقع مرتبك فعلا ... فاعذرنى ان بدا منى بعض السخط والتبرم ... ان لدى موعدا هاما .. ولا أدرى ماذا أفعل الآن .

- أى موعد هذا الذى لديك .. مجلس ادارة ؟

وهز عزرائيل رأسه علامة النفى .. ورأيت منظره يبعث على العطف .. فندمت على ذلك الاندفاع منى فى تقريعه وتأنيبه ، وحاولت أن أخفف من ضيقه ، فقلت له هازلا :

- لعله اذاً موعد غرام ! !

ولشدة دهشتى رأيته قد أطرق برأسه علامة الموافقة . وهنا لم أستطيع أن أمنع عاصفة من الضحك انطلقت من صدرى .. يا للعجب ... عزرائيل عاشق .. وعلى موعد غرام ! !

ونظرت الى عزرائيل فاذا به غريق فى بحر من الخجل .. أغلب ظنى أن مبعثه كان حداثة عهده بالحب .. فلقد كان عاشقا مستجدا .. وأردت أن أروح عنه .. فقلت فى بساطة :

– وعلام الخجل وكلانا عشاق .. ترى من تكون المعشوقة السعيدة ؟

ورفع الى عزرائيل عينين يلمع فيهما بريق الحب :

– حورية ما رأيت أفتن منها ولا أجمل ...

وهممت بالضحك .. فقد أطربنى منظر عزرائيل العاشق .. ولكننى كتمت ضحكتى خشية أن يظن فيها سخرية منه .. ومع ذلك فقد استطاع أن يلمح ضحكتى فى أسارير وجهى ... فقال :

– يبدو لى أنه قد أدهشك أن أكون عاشقا ...

– أقول لك الحق .. انه قد أدهشنى فعلا .

– ولم ؟

– وترددت برهة فلم أدر بماذا أجيبه .. ولكننى رأيت فى عينيه اصرار على الاجابة ... فقلت :

– قد يكون مبعث الدهشة .. هو ما أتخيله من بشاعة عملك وقسوته .. وتنافره مع لين الحب ورقته .. فأغلب ظنى أن العاشق .. لايمكن أن يكون قباض أرواح .. وقباض الأرواح لا يمكن أن يكون عاشقا .

– لا يا سيدى .. لشد ما أخطأت فى ظنك .. ليست هناك صلة بين العمل والحب .. الحب شىء لابد منه لكل كائن حى ... انه كالهواء الذى نتنفسه .. ولابد من الحب ما دامت الحياة ... وليس فى هذا الكون من

لا يشعر بالحب ولا يحتاج له ، الا الجماد ... فالكائنات الحية لابد لها من التوالد والتكاثر ، والا انقرضت فلم تصبح حية .. والتكاثر لابد له -- في أغلب الأحيان -- من جنسين .. ولابد لحدوث التكاثر من تقارب بين الجنسين .. ولابد للتقارب من جاذبية تدفع أحدهما الى الآخر .. هذه الجاذبية ... هى ما يسمونه : الحب .. وهذا هو تفسير الحب فى دنياكم .. أما عندنا فيخيل الى أن الكائنات أشبه بالاقطاب المغناطيسية ، لا يكاد القطب السالب يقترب من القطب الموجب حتى يندفع كل منهما تجاه الآخر ... أجل .. ما من روح الا ولها الفها الذى تأنس به وتحس الراحة فى جواره .

وصمت عزرائيل لحظة ، ثم تنهد قائلا :

- آه يا سيدى لو رأيت قطبى الآخر ... ان جاذبيته لا تقاوم ، حتى لقد أحسست بنفسى أندفع اليه اندفاعا عنيفا .. كأننى قنبلة صاروخية .

يا لعزرائيل العاشق الولهان ! ... لقد أحسست ما به من فرط الوله والصبابة ، وبدأت التمس له العذر فى ذلك الضيق والتبرم الذى أصابه عندما تذكر الموعد . وشعرت أنى عبء يثقل كاهله .. وحمل ينقض ظهره ، وعزمت على ألا أكون عقبة في سبيله بأية حال .. أجل ، ما كنت بالذى يقف فى سبيل العشاق .. وأنا مدمن العشق ... محترف الهوى .

ونظرت الى عزرائيل وقلت بلهجة مليئة بالعطف عليه .. وتقدير احساسه :

- اسمع يا سيدى .. خفف عن نفسك .... ولا تضيق بى هما ... يمكناك الذهاب الى موعدك دون أن تخشى شيئا .. سأفعل كل ما تطلبه

منى .. سأنتظر كما تشاء .. بين السماء والأرض ... أو حتى بين زبانية الجحيم .. أين موعدك ؟

– فى الجنة !

– اذن لقد هان الأمر .. هيا بنا .. تدخل أنت الى صاحبتك .. وتتركنى خارج الأسوار أتسلى بمشاهدتها ...

ثم أردفت ضاحكا :

– بشرط أن تذكرنى بالخير عند صاحبتك وعند أهل الجنة .. فقد أحتاج الى شفاعتهم يوما للدخول الى الجنة . ان كانت تجدى الشفاعة

ووضعت يدى فى يده وهممت بالعودة به .. وقد تملكتنى النشوة وملأنى الفرح .. فلقد كنت على وشك أن أصيب عدة عصافير بحجر واحد .. فأولها : هذه الخدمة الجليلة التى سأؤديها لعزرائيل الولهان .. والتى لا أظنه سينساها لى أبد الدهر ... ومن يدرى ... ربما أحتاج اليه مستقبلا كما احتاج الى الآن .. وما أظنه بناكر للجميل .. وثانيها : أنى سأتمتع بمشاهدة الجنة ... ولو من خارج الأسوار ... وهى فرصة قد لا تسنح بعد ذلك قط .... فقد يكون مصيرى الجحيم .. وما أظنهم يسمحون لأهله بمشاهدة الجنة .. ولا حتى من خارج الأسوار .. وثالثها : وهو أمل كان يراود نفسى .. هو أن تسنح لى فرصة فأبصر احدى الحوريات تطل من شرفة أو نافذة .. وقد أنجح فى مغازلتها فتنزل الى أو أصعد اليها . أو من يدرى قد يرانى السيد رضوان الهمام حارس الجنة ، فيدعونى الى تناول فنجان من القهوة ، أو كأس من الخمر التى

تفيض بها أنهارهم ، وقد يكون أكثر كرما فيسمح لى بجولة فى أرجائها ...

أجل ، ما من شك فى أنى سأفيد من عودتى مع عزرائيل .. فحتى لو فشلت فى الحصول على شىء مما ذكرت .. فلن أعدم حجرا خارج الأسوار أقذف به أشجار النخيل والأعناب فأصيب شيئا من التمر والعنب ، ولا أظن أن السيد رضوان سيكون من الهيافة بحيث يعدو ورائى كبقية البوابين .. فما أظن النخيل والأعناب ذات قيمة لديهم .

وجذبت عزرائيل من يده .. ولكنه لم يتحرك .. لقد ظل متسمرا فى مكانه .. ولم يذهب من وجهه ذلك الضيق والحزن .. يا لله .. ماذا يريد منى أن أفعل له أكثر من ذلك .. لعله يريد أن أحضرها له حيث هو . وقلت له فى دهشة :

- ما بك ... ؟ لقد قلت لك انى سأفعل ما تريد .

المسألة أعوص من هذا ... انى أقدر لك جميل صنيعك ... ولكن ادى أعمالا لم أنجزها بعد ... وكان المفروض أن أنجزها فى ذلك الوقت الذى أضعته معك وقد أزف الموعد ... ولا أدرى ماذا أفعل .. أأنجز العمل وأترك الموعد .. أم أذهب الى الموعد وأترك العمل ؟ !

وأطرقت برأسى مفكرا ؟ ثم قلت بعد هنيهة :

- هل يمكننى أن أقوم عنك بانجاز هذه الأعمال ؟

وهز رأسه عدة مرات علامة النفى .. فقلت :

- على أية حال أخبرنى ما هى تلك الأعمال .. فمن يدرى ربما استطعت انجازها لك ؟ .. وقد يضع سره فى أضعف خلقه .

– بضع أرواح أريد أن أقبضها ...

– يا ساتر يا رب ! !

وتراجعت الى الخلف فى وجل وارتياع .. وأردفت صائحا :

– لا يا سيدى .. لا ... الله بينى وبينك .. هذا عمل لا أجيده ولا أحذقه .. وليست عندى أى رغبة ولا استعداد للقيام به .. حاشا لله أن أكون قباض أرواح .. اننى لا يفزعنى شىء كرؤية الموتى .. ولا أكره فى حياتى شيئا كما أكره عملية القتل .

ونظر الى عزرائيل بدهشة وقال :

– قتل ! ؟ ... وما دخل القتل فى موضوعنا .. ان المسألة أبسط كثيرا مما تتصور ...

وصمت لحظة ثم أردف بصوت يفيض باليأس والحزن :

– على أية حال .. أنا لا أستطيع أن أكلفك القيام بواجباتى ، ويكفينى منك ذلك العطف الذى أبديته نحوى .. وانى لأشعر أنى لا أستطيع أن أوفيك حقك من التقدير والشكر .

وأطرق عزرائيل برأسه وساد بيننا صمت عميق .. وشعرت باللوعة والأسى . ووددت لو استطعت أن أفعل له شيئا .. أى شىء .. وتمنيت لو أمكننى أن أنجز له أعماله .. وأن أقوم عنه بقبض تلك الأرواح التى يرغب قبضها ... ولكنى كنت أحس أن العين بصيرة واليد قصيرة .. وكنت أدرك أن المسألة لايمكن أن تكون من السهولة بحيث أعد بانجازها ببساطة .. فان المسألة قبض أرواح .. لا قبض نقود .. وقد ترفض الأرواح أن تصعد معى ... وقد تفر منى فى الطريق وتعود الى أجسادها .. بل قد لا أستطيع معرفة أصحاب الأرواح التى أنوى

قبضها .. وقد يروغون منى أو ينكرهم أهلوهم .. واذا كان عزرائيل نفسه قد أخطأ فى احضارى .. أأكون أنا معصوما من الخطأ .. وأكثر من هذا من يدرى أننى بعد أن أقبض الروح وأسمع بكاء أقاربها وأصحابها ... لايتملكنى التأثر فأعيدها اليهم مرة أخرى ... لا ... ان العملية لن تكون سهلة بحال من الأحوال .

ونظرت اليه ، وقلت له فى رقة وأدب :

- بودى لو استطعت أن أقوم عنك بانجاز أعمالك .. ولكنى أحس فى نفسى عجزا وقصورا .. وأخشى ان أنا تعهدت بعملك أن أفسدها وأسبب لك مشكلة كبرى .

ورفع الى وجهه وقد بدا متهللا يفيض بالبشر كأن قولى قد أوجد حلا لمشكلته .. وصاح فرحا :

- لا ... لا ... المسألة فى غاية البساطة .. ولا تحتاج الى أى مجهود خاص ، أو مهارة معينة ... سأشرح لك بالضبط كل ما يجب عليك عمله ... وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة فى شىء ما ...

وقبل أن أجيبه بالقبول أو الرفض ... رأيته قد أخرج من عباءته عصا صغيرة وقدمها الى ... وأخرج من جيبه ورقة مطوية وكيسا صغيرا ، وبدأ يشرح المهمة العجيبة قائلا :

- هذا بيان بالأرواح المطلوب قبضها .. وأمام كل منها بضع ملاحظات ستكون ذات فائدة لك ، وليس عليك الا أن تشير الى الروح بهذه العصا .. حتى تترك جسدها مطيعة صاغرة ... وعندما تتجمع لديك كل الأرواح المطلوب قبضها فى هذا الكيس تحضرها الى ... هذا هو كل ما أطلبه منك ... ولن أنسى لك هذا الصنيع أبد الدهر .

ومد الى يده بالورقة والكيس دون أن يعطينى فرصة التفكير فيما أنا مقدم عليه .... ودفعنى حب الاستطلاع الى أن أمسك بالورقة التى بها بيان الأرواح .. فألقى عليها نظرة عابرة .

ولكنى لم أكد أقرأ بضعة أسطر مما بها .. حتى دفعت بها اليه فى عنف ، وقلت له مرتاعا :

- لا .. لا ... يا سيدى .. هذا شىء فظيع .. هذه قسوة متناهية .. أعفنى من هذا العمل .. أرجوك .. لاتحملنى مالا طاقة لى به .. ان مجرد القراءة قد جعل بدنى يصاب بقشعريرة ... فما بالك بالتنفيذ ...

وكنت صادقا فى قولى كل الصدق .. فقد كانت الورقة أشبه بفواتير التجار .. فهى عبارة عن جدول سطرت به ثلاث خانات الأولى كتب بها الاسم .. والثانية الوقت .. والثالثة المكان .

وكان أول اسم وقع عليه بصرى هو الآنسة (زيزى ابراهيم) وكان الوقت المطلوب قبض روحها فيه الساعة الثانية عشرة ظهرا ... والمكان هو شاطىء سيدى بشر .. أى أننى سأفتتح عملى الجليل باغراق آنسة فى مقتبل العمر بين أمواج سيدى بشر .

يا للفظاعة .. لقد تراءت لى الآنسة المذكورة بعين الوهم وقد ارتدت مايوها من قطعتين .. وسرى جسدها فى رقة بين الأمواج وحملها التيار بعيدا عن الشاطىء وحاولت الرجوع فأضناها الجهد ،وصرخت ، فلم يسمعها الا مخلوق واحد ... وهو أنا .

وتبصرنى الفتاة فتتهافت نحوى ، ولكنى بدلا من أن أتقدم اليها فأنتشلها من بين الأمواج .. كأى رجل به ذرة من الشهامة .. أشير اليها بالعصا .. فأقبض روحها .. وأترك جسدها الجميل يهوى الى قاع البحر .

ونظرت الى عزرائيل فى غضب واستياء .. فلم أر بوجهه أى مظهر من مظاهر الخجل على سوء فعلته ... بل كان يهز رأسه فى دهشة متسائلا :

– ما هذا الشيء الفظيع الذى تقول انه قسوة متناهية ؟

فأجبته فى غضب :

– تطلب منى اغراق آنسة فى مقتبل العمر .. ثم تتساءل عن وجه الفظاعة فى هذا ؟

– نعم ، وما زلت أتساءل ! .

– آنسة فى مقتبل العمر.. غضة بضة .. أضاقت بك الأرض فلم تجد الا هذه الآنسة تنقض عليها فتقطف عودها الأخضر النضر ؟ لم لا تتركها تتمتع بشبابها وحياتها ؟

– ولكنك يا سيدى تعلم أن الدنيا لاتستحق أن يعيش فيها المرء ... ولقد قلت أنت نفسك : ان بها من السيئات ما يجعل الانسان يفضل الفرار منها لولا خوفه من الموت .. فهذه الفتاة سنرحمها من شرور الحياة ! !

وهنا تذكرت الدنيا بقبحها ومصائبها ورذائلها .. فرأيت عزرائيل على حق ، غير أنى قلت له :

– ولكن ألا يمكن أن تختار لها ميتة أخرى .. غير الغرق .. فانى أرى فيها ميتة بشعة ؟

– وما وجه البشاعة فيها ... ألم تمت أنت نفسك تحت عجلات الترام ؟

– نعم ...

- أتراك قد أحسست بما يتخيل الناس من آلام الموت وأوجاعه وبشاعته وشناعته ؟

- كلا مطلقا .. لقد كانت ميتة سهلة هينة .

- وهذه أيضا ستكون مثلك ... فالموت هو الموت مهما اختلفت وسائله .. وهو جميل محبب مهما تنوعت مظاهره .. ومهما بدا للانسان من بشاعته .

ومددت يدى فاستعدت الورقة .. بعد أن هدأ روعى واستعدت فى ذهنى حقيقة الموت .

وبدأت القراءة .. الاسم الثانى ... المعلم « حنفى عبد الغفور السماك » وزوجته « زهرة ابراهيم » ... كلاهما فى زمن واحد .. ومكان واحد ... الساعة الثانية بعد الظهر .. تحت أنقاض منزل فى حى سيدى زينهم .. يا ساتر يا رب !

ونظرت الى عزرائيل بطرف عينى نظرة مليئة بالغيظ .. ولكنى عدت فتذكرت حقيقة الدنيا وحقيقة الموت ، فلم أنبس ببنت شفه ...

ولم يدعنى عزرائيل أتمم القراءة .. اذ كان موعده قد أزف .. وكان فى عجلة من أمره .. فقال فى لهجة المتعجل :

- لا حاجة بك الى أن تتم قراءتها الآن .. فالخط واضح .. ولا أظنك ستخطىء فى قراءته .. وعلى أية حال ...

ثم مد يده فأخرج من جيبه جهازا صغيرا فى حجم الكف وأردف قائلا :

- هذا جهاز لاسلكى صغير .. يمكنك بواسطته الاتصال بى فى أية

لحظة ان صادفتك عقبات ... ولو أننى أظنك لن تحتاجه ... لأنك سترى المسألة فى غاية البساطة .

وهز يدى مودعا .. واتفقنا على أن نلتقى فى تلك الساحة التى التقينا بها أول مرة .

وانطلق عزرائيل صاعدا الى السماء .. تاركا اياى معلقا بين السماء والأرض .. وقد أمسكت بيدى الورقة والعصا والكيس والجهاز .. وقد أصابتنى حيرة ودهشة ما أظن أحدا يستطيع حتى مجرد تخيلهما .

من يصدق هذا ؟ ... من يخطر له على بال أنى سأعود الى الأرض ؟ ... وبأى صفة ؟ !! .. بصفة عزرائيل الموحش المخيف ! ! .. سأعود لأقبض الأرواح وأخلف اليتامى والثكالى .. والأعين الدامعة ... والقلوب الموجعة ! !

وأحسست بأنى على وشك أن أضعف ، ولكنى تماسكت ، وقلت لنفسى .

ان العمل عمل .. لقد وعدت الرجل .. وسينجز حر ما وعد ! !

● ● ●

الفصل الرابع

ناتب عزرائيل

ووقفت أفكر برهة وأنا أهز العصا فى يدى كأنى « ماريشال » فى ميدان قتال .. وشعرت بالكبرياء تملأ نفسى .. فقد بدأت أحس بمدى المسئولية الملقاة على عاتقى .. انى لم أعد بعد شيئا تافها .. انى لم أعد مجرد انسان ... أو روح انسان .. لقد أصبحت نائب عزرائيل ... أو على الأصح عزرائيل نفسه ما دمت أملك هذه العصا التى أستطيع أن أشير بها الى الأرواح فتغادر أجسادها مطيعة صاغرة ... أجل .. لقد أضحت أرواح البشر كلها فى يدى .

وهنا خطر بى خاطر عجيب .. لقد كنت فيما مضى أعجب لتلك الطريقة التى يسير عليها الموت ، وأرى كثيرا ما يأخذ الشخص الذى لايحب أخذه .. وأنه – كما قلت لعزرائيل – بلا قواعد ولا نظم .. فما استطعت مرة واحدة أن أبصره فى موضعه ... وما أشعرنى قط بحكمته ورويته ، وانى لأوقن أن الدنيا ربما قد تكون خيرا مما كانت لو أن للموت قواعد ونظم ... فلا يصيب الا الأشرار والذين لم يعد لوجودهم فى الدنيا نفع ولا فائدة .

وبدأت ترد على خاطرى حوادث الموت الطائشة الحمقاء التى رأيتها فى الدنيا .. والتى لم أكن أجد لها وقتئذ أية حكمة أو معنى .

ذكرت ذلك الطبيب الشاب .. الملىء بالصحة والقوة والذى بدت أمامه طرق المجد ممهدة معبدة .. وبسم له الحظ .. فدفعه الى قمة الشهرة فى غمضة عين ، وأصبح على حداثته يشار اليه بالبنان ... ولم تحرمه الحياة من متعاتها ، فوهبته زوجة حسناء طيبة ، وطفلا جميلا قرت به عيناه ...

وذهب الطبيب ذات يوم يعود مريضا أقعدته العلة وأزمن به الداء .. وفحص المريض ... وقلبه يمنة ويسرة ثم خرج من حجرة المريض يتبعه أهل الدار ... وقلب شفتيه وهز رأسه فى يأس ، وقال لهم فى صوت خفيض :

– أصارحكم القول ... لم يعد هناك أمل ولا رجاء ، ان أيامه فى الحياة قد أضحت معدودات .. ولا أظن الطب سيجديه نفعا .

ولم يتأثر أهله كثيرا ولم يحزنهم قول الطبيب فقد كانوا يعلمون ذلك قبل أن يقوله .. ولم يكن مجيئهم به الا اطلاقا لآخر سهم فى جعبتهم التى طاشت كل سهامها .

وبعد ساعتين أتى الى صاحب لى قد اصفر وجهه ، وهتف بصوت مبحوح :

لقد مات ! !

– رحمه الله ... لقد انقذه الموت من أوجاع المرض .

– أى مرض ؟ .. انه لم يشك مرضا قط .

- ألست تقصد الرجل المريض ؟ !

وهز صاحبى رأسه فى يأس ، وتساقطت من عينيه دمعتان وهمس :

- انه الطبيب .

- الطبيب ؟ ! !

وقفزت من مقعدى كأن أمرأ قد وخزنى فى جانبى أو كأن شيطانا قد مسنى ... أو قد مات الطبيب ؟ ! يا للموت الهازل .. يا للموت الأحمق الطائش ! !

ذلك الرجل الممتلىء صحة وقوة والذى لم يكن يتوقع لذلك الجسد المحطم أكثر من أيام معدودات ! ! ... قد بخل عليه الموت حتى بهذه الأيام المعدودات فلم يهبه هو الا دقائق وساعات .

لقد تيتم ابنه .. وترملت زوجته .. وثكلت أمه .. وبيعت عيادته .. وأصبح كأن لم لم يكن .. والرجل المريض ما زال مريضا ... لاشفى ولا مات .

وأمسكت رأسى وقتذاك أعتصره على أجد سببا لهذا الخلط وحكمة لهذا البدل .. فأعيانى البحث ولم أشك لحظة فى أنى لو كنت مكان عزرائيل لما خطر لى قط أن أترك المريض وأقبض روح الطبيب . اللهم الا أن أكون فى حالة سكر وفى غير وعى ... وهو ما أستبعده وأنزه عنه عزرائيل .

وذكرت تلك الزهرة الآدمية النضرة العاطرة .. التى تلألأت البسمات فى وجهها .. كما يتلألأ الندى على وجنات وردة صافحتها أشعة الشمس فى الصباح .

وذكرت روحها المرحة الضاحكة .. وآمالها الحلوة وأمانيها التى لا حد لها .. كانت شديدة الثقة بالحياة قوية الايمان بالمستقبل ، وكانت تعيش من أحلامها فى قصور ذهبية .. ولم تبخل عليها الحياة بما يحقق أمانيها فوهبتها خطيبا أحست بأنه الف روحها .. فزادت الحياة فى نظرها ازدهارا .. وبدأت ترسم فى رأسها ثوب الزفاف .. وبدأت تحلم بدارها الجديدة ... وكيف تنظمها وتنسقها .. وتتخيل أطفالها .. وكيف يلهون ويلعبون وكيف ستحاول هى تأديبهم .

وذكرت كيف قابلتها عائدة من عند الخياطة قبل موعد الزفاف ببضعة أيام ، وكيف كان السرور يبرق فى عينيها والسعادة تشع من وجهها .. ودعتنى الى حضور الزفاف ، فهنأتها مقدما .

وبعد يومين أمسكت بالأهرام .. فاذا صورتها فى صفحة الوفيات .. لقد ذوت الزهرة واحتواها الثرى .

وخرجت من الدار .. فكان أول ما وقع عليه بصرى ذلك المتسول الكهل الضرير .. الذى بلغ من العمر أرذله .. والذى أضاع عمره تحت ذلك الجدار .. يطلب حسنة تعينه على حياة أغلب ظنى أنها لاتساوى الحسنة ، ولا حتى السيئة .

ورأيت رأسى يضطرب بسؤال ... ولم أستطع له جوابا ... ؟ .. أترى عزرائيل وهو فى طريقه ليقبض روح الفتاة الناضرة لم يمر على هذا الجسد الذابل الذاوى ... وهل لم يصبه الخجل وهو يصعد بالروح الأولى ويترك الثانية ؟

أترى لديه حكمة فى هذا البدل ؟ ..

وذكرت حوادث كثيرة مشابهة .. وذكرت أكثر من ذلك أننى كنت

أتمنى عقب كل حادثة أن أكون مكان عزرائيل .. حتى أريه كيف تقبض الأرواح وكيف تكون حكمة الموت .. وأجعل الناس يحسون أنى لا أضع الشيء فى غير موضعه .. ويدركون أن كل روح قد أخذتها تستحق الأخذ .. فلا تعود تضنيهم حسرة على موتاهم ... ولا يعودون يحسون بخسارة لفقدهم .. بل على النقيض .. يشعرون بأن الخير كل الخير فى موتهم .

أجل .. كم كنت أود أن أكون مكان عزرائيل فأريه كيف يكون اصابة الهدف .. وكيف يكون أحكام الاصابة .. فأسمع بعدها من البشر تصفيق الأيدى بدل لطم الخدود .. وصيحات الاعجاب بدل صرخات الحزن والألم .

والآن وقد أمسكت بالعصا فى يدى .. وتحققت لى تلك الأمنية التى كنت أظنها خرافة لا تتحقق ... وأصبحت الأرواح رهن اشارتى ... فليس على الا أن أشير لها بالعصا حتى تفارق أجسادها طائعة صاغرة .

الآن وقد أصبحت عزرائيل الذى تمنيت أن أكونه ...

أتراني سأحقق تلك النوايا التى دارت برأسى فى زمن مضى ، يوم كنت لا أزيد على مخلوق يرسف فى أغلال جسده ؟ !

أتراني سأتقيد بذلك البيان الذى أعطانيه عزرائيل .. فأرتكب تلك الأخطاء التى كانت تثير فى نفسى الدهشة والغضب ؟ .. أتراني سأتبع ذلك البيان بكل ما فيه من متناقضات كنت أربأ بنفسى فى حياتى عن ارتكابها ؟

كلا .. هذه فرصة العمر .. ولم أكون من الحماقة بحيث أتركها تمر . لابد أن أكون عزرائيلا نموذجيا .. سأضرب للسيد عزرائيل المثل

الصالح .. فلعله يبصر على ضوئه مقدار ما كان يرتكب من أخطاء .. ولعلى أرسم له طريقا سويا يسير على هداه فى مستقبل الزمن فأكون بذلك قد أسديت الى البشر خدمة كبرى ووضعت لهم نظما وقواعد للموت .. فلا يعودون يفاجئون به بعد ذلك .. وتصبح حياتهم خيرا من تلك الحياة القلقة المضطربة .

وأحسست برأسى يصطخب بالأفكار .. ورأيت نفسى حائرا بين أمرين واجبى نحو عزرائيل ، وواجبى نحو الانسان المسكين ... فلا شك أن فى الخروج عن البيان ، وفى محاولتى قبض أرواح غير التى أدرجت فيه ضررا بليغا بعزرائيل .. واخلال بعهدى منه ووعدى له .

ولكن العمل الجليل الذى تخيلت أننى قد أستطيع عمله للانسان .. يستحق منى أن أحنث بكل وعد وأن أخون كل ميثاق وعهد .. ولا أظن خيانتى للعهد فى تلك الحالة تسمى خيانة ... بل تضحية ومروءة .. لأننى أعتقد أن الرذائل لن تكون رذائلا الا مما ينتج عنها ، وأرى من السخف أن يحاول الانسان التمسك بالصفات الحميدة .. اذا كان عكسها قد يؤدى الى خير منها .. وكم صادفتنى فى الحياة ظروف كان الكذب فيها خيرا ألف مرة من الصدق .

وعلى ذلك فقد استقر رأيى ألا أتقيد فى عملى بالورقة التى معى ... وأن أكون حرا فى تفكيرى وفى تصرفاتى وأن أقبض من الأرواح ما أراه يستحق القبض ... .

وبدأت فى الهبوط .. وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأرواح التى سأبدأ فى أخذها قبل غيرها .. وأخذت أبحث عن أكثر أبناء آدم ضررا بأبناء آدم .. وأشدهم فتكا بهم .. وأخذت أنقب فى ذاكرتى عن أكثر الناس اجراما وأشدهم خطورة .. اذ كان على أن أبدأ بتطهير الأرض

منهم حتى أجعل الناس أكثر شعورا بالأمن وأكثر اطمئنانا على حياتهم .. ويلى ذلك المرضى والعجزة والمجانين الذين تكاد تضيق بهم الدنيا على سعتها والذين ليسوا هم بأحياء ولا أموات .

ولكنى وجدت وقتى أضيق من أن أحاول حتى مجرد احصائهم .. ورأيت أننى لابد أن أقتصر على أقل عدد ممكن من الأرواح التى أستطيع بأخذها أن أؤدى خدمة عامة للانسانية .

وهنا كان لابد لى من أن أحاول التفكير فى هدوء .. حتى يكون تفكيرى منطقيا معقولا ... فيقودنى الى أحسن النتائج .. لأن المسألة كانت أجل من أن أحاول حلها حلا مرتجلا .. فلا أظن الفرصة قد أتيحت لكائن من كان أن ينوب عن عزرائيل فى عمله ، ولا أن يتمتع بتلك الخاصية التى أتمتع بها الآن .... فمن الحمق أن أضيعها دون أن أفيد منها أكبر فائدة يمكن الحصول عليها .

وهنا لاح لى خاطر جعلنى أهتز طربا ...

قد يكون العالم مليئا حقا بالأشرار والمجانين ... وقد يكونون ذوى خطر على من حولهم ... الا أن هناك نوعا معينا من المجانين الأشرار أخطر كثيرا من النوع العادى ... فهم لايبدون للناس أنهم مجانين أو أشرار ... ومع ذلك فان خطرهم لايقتصر قط على من حولهم .. بل يتعداهم الى غيرهم ممن هم بعيدون عنهم كل البعد .. هؤلاء هم أشد الناس فتكا بالناس وأخطر أبناء آدم على أبناء آدم ... هؤلاء هم المجانين العالمون .

هؤلاء المجانين المطلقو السراح ... لهم قدرة على خداع الناس ،

وايهامهم أنهم أكثر منهم عقلا ... فيمسكون بزمامهم ويتحكمون فى أمورهم .. ثم يقودونهم الى الدمار ويلقون بهم الى التهلكة .

هؤلاء هم من تعودنا أن نسميهم بذلك بالزعماء والقادة .. وما أظن هناك أمة من الأمم الا وقد أبتليت بذلك النوع من المجانين ... وهم يبدأون بالصراع مع غيرهم حتى يصلوا الى ما يسمونه بالزعامة أو القيادة .. فيأخذون فى الصراع مع بعضهم البعض ، لارضاء مطمع أو اشباع شهوة ملتمسين فى ذلك ما شاءوا من الأعذار البراقة والحجج الكاذبة .. وتصطدم من ورائهم الأمم التى يتولون قيادتها .. وتشتبك فى صراع مخيف ... تذهب ضحيته الجحافل البريئة كأنها وقود فى أتون تضطرم نيرانه .

وهنا وهناك يقف أولئك المجانين كالمهرجين ليشاهدوا الانسانية تنتحر ، ويبصروا الانسان يأكل بعضه بعضا .. فان توانى أو أصابه الكلل .. صاحوا به يغرونه بالشر ويدفعونه للأذى .. وينذرونه بالفناء ان لم يفن خصمه . هؤلاء المجانين يخدعون الناس بطريقة ساحرة ... لم يستطع أحد حتى الآن أن يكتشف مبلغ ما فيها من غش وخديعة ومكر سيىء .. هذه الطريقة هى بث ما يسمونه بالروح « الوطنية » .. أو على الأصح روح التعصب الوطنى فالروح الوطنية هى شر ما ابتلى به الانسان .. وهى التى لا تفتأ تقوده الى تلك الحروب البشعة المنكرة . « فالوطنية » بهذا المعنى ، هى الأنانية بأسوأ معانيها وأبشع مظاهرها . فهى أنانية أمة .. وهى أن تشعر مجموعة من الناس بأنهم خير من غيرهم .. وأنهم يجب أن يكون لهم السبق فى الحياة وفى رفاهيتها وفى متعاتها .. ويأتى بعد ذلك غيرهم .. أو لايأتون قط فذلك لا يهمهم .

أجل .. ان الأنانية تعنى أن يقول الفرد « أنا أولا » « والوطنية » التى

نقصدها هنا تعنى أن تقول الأمة « أنا أولا » ... وهنا يبدأ الصراع .. وينشب القتال .. فكل أمة تريد أن تنهش من جسد العالم أكبر قطعة يمكنها نهشها ... فيأكل الضعيف القوى .. ثم يصطدم القوى بالقوى فيصرعهما الصدام .

هذه هى « الوطنية » أو روح التعصب الوطنى .. التى يظنها الانسان خير ما يفرضه على نفسه .. وهو لو درى لعلم أنه ما قاده الى التهلكة شر من هذه « الوطنية » ، ولو كشف عن بصيرته لأدرك أن الانسان يمكن أن يصل الى أعلى مراتب الكمال لو استطاع أن ينزع من نفسه ما يسمونه ، على هذا النحو ، « بالوطنية » ... وغرس بدلها الاخاء الانسانى الذى يجعل الدنيا كلها وطنا واحدا ، والذى يجعل ابن آدم ،مهما كان جنسه ، ومهما كان موطنه .. عندئذ .. وعندئذ فقط .. يصبح العالم آمنا من شر الحروب .

ولكن ، هل ترى أولئك المجانين الذين يقودون الأمم يمسحون بذلك الاخاء الانسانى ؟ .. والا فماذا يكون عملهم وقتذاك .. وكيف يكونون قادة وزعماء .

تلك هى العلة فى ذلك الجسد المريض .. لو أمكننى استئصالها لأنقذت العالم من السوء ووقيته من كل شر .

أجل .. لو استطعت أن آخذ أرواح هؤلاء المجانين وأنذر الناس أن كل مجنون على شاكلتهم يحاول أن يتجر بذلك الوباء الذى يسمونه « الوطنية » .. سيكون مصيره مصيرهم ...

آه لو استطعت أن أفعل ذلك .. لضمنت للعالم سلاما دائما وأمنا مستتبا .. ولانصرف الناس الى اسعاد أنفسهم ورفاهيتها .

وهنا أحسست أننى قد توصلت الى خير ما ينبغى أن أفعل .. فهززت العصا فى يدى وقلت ضاحكا : « جالك الموت ... » .

وأمسكت بالورقة التى بها بيان الأرواح .. وهممت بتمزيقها .. اذ لم أعد فى حاجة اليها .. ولكن خطر لى أن أتسلى بقراءتها فى طريقى الى الأرض .. ونشرتها بين يدى ومررت ببصرى على الأسماء الثلاثة الأولى وهى الآنسة زيزى ، والمعلم حنفى ، وزوجته ، مرورا عابرا .. وبدأت أقرأ ما يليها من الأسماء .

الاسم الرابع : « جابر بك كيراشو » .. الزمن الساعة الثانية والنصف عقب وليمة غداء .. المكان على المائدة فى داره الجديدة بباب الخلق .

ولا أدرى ماالذى دفعنى الى الضحك عند قراءتى لهذا الاسم .. أتراني قد أصبت بغلظة قابضى الأرواح وقساوتهم واستهتارهم بعملية الموت .. أترى العدوى قد انتقلت الى من عزرائيل بمجرد أن أمسكت عصاه .. أم أن موت السيد كيراشو فى وليمة غداء شىء يثير الضحك حقا .. على أية حال ما كان يجب على أن أضحك فقد خيل الى أنى قد أصبحت أشبه « بالحانوت » الذى تضحكه الجنازات .

الاسم الخامس «محمود أفندى الفنط» الزمن : الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، المكان : شارع السد البرانى حيث يصدمه تاكسى أثناء عبوره الشارع وراء الآنسة «تحية لف» وانهماكه فى مغازلتها ..

الاسم السادس والسابع والثامن ... حتى العشرين أسماء لركاب احدى عربات الترام رقم ١٣ الذاهب الى الامام الشافعى الزمن الساعة

الخامسة مساء ، والمكان : شارع محمد على وقد خرج الترام عن القضبان واصطدم بأحد المنازل . (ملاحظة : المدعو محمود أبو السعد .. سيكون أحد ركاب الترام ... فيجب التأكد تماما من أن روحه ليست ضمن الأرواح المقبوضة وأنه يستمر على قيد الحياة ... لأنه شخص منحوس ولا يمكن الاستغناء عنه فى أمثال هذه الحوادث) .

الاسم الحادى والعشرون « حسين قدرى » .. الزمن : الساعة الخامسة والنصف مساء ، المكان : عربة بويك مقلوبة فى شارع الهرم حيث كان يسوقها بسرعة ١٢٠ كيلو فى الساعة ، وهو يحتضن الآنسة « فيفى جمال » .

(ملاحظة : الآنسة المذكورة تستمر على قيد الحياة .. حيث أنها مطلوبة فى حوادث انقلاب عربات أخرى) .

وانتهيت من القراءة ... وهممت بأن أمزق الورقة ، ولكن مرت برأسى فكرة جعلتنى أحجم عن تمزيقها .

لقد خطر لى أن أصحاب هاته الأرواح المطلوب قبضها ... والذين قد قدر لهم أن تنتهى حياتهم اليوم ويبيتون جثثا هامدة ... لن يحسوا أننى عدلت عن أخذ أرواحهم .. وأنهم سيسيرون فى الطريق الذى قدر لهم أن يسيروا فيها .. حتى ينتهى الأمر بكل منهم الى أن يقع فى الكارثة التى لابد أن تؤخذ روحه بعدها .. ولكن الروح لن تجد من يأخذها .. وعلى ذلك اما أن تمكث حائرة بين البقاء والصعود .. واما أن تصعد من نفسها الى السماء فتفضحنى وتفضح عزرائيل .

وتملكتنى الحيرة .. فقد كانت المسألة أصعب كثيرا مما تخيلتها فى بادىء الأمر ... وكان من الحمق أن أترك أصحاب الأرواح يترددون

فى مهاوى الموت ويلقون بأنفسهم الى التهلكة ، ثم أترك أرواحهم حائرة فى أماكنها .

وأخيرا استقر رأيى على أمر صممت على تنفيذه .. فلقد رأيت أننى ما دمت قد عزمت على ألا أقبض أرواحهم وعلى أن أتركهم يتمتعون بالحياة .. وآخذ بدلهم ما يماثلهم عددا من أولئك المجانين الأشرار الذين يسمونهم : القادة والزعماء .. والذين يعيثون فى الأرض فسادا ، ويحرضون الناس على قتل بعضهم البعض وتدمير العالم بحجة المحافظة على كيان أوطانهم . كأنهم لايدرون أن أوطانهم جزء من العالم ، وأن فى هدم العالم هدما لأوطانهم .

أقول أننى ما دمت قد عقدت النية على انقاذ هؤلاء الأبرياء ، فيجب على أن أمنعهم من التردى فى مهاوى الموت ، وأن أنزل اليهم فأبعدهم عن المسلك الشائن الوعر الذى سيودى بهم .. وأقودهم الى طريق السلامة والنجاة ، فلا أتركهم الا وهم آمنون سالمون بعيدون عن كل ما كان سيدفع بهم الى الموت .. وعندما انتهى من مهمة انقاذهم .. يمكننى بعد ذلك أن أشمر عن ساعدى لقبض الأرواح المجرمة التى نويت أن أنقذ منها العالم .

– وهكذا بدأت أتوجه الى الروح الأولى لأنقذها من مصيرها المحتوم .

● ● ●

الفصل الخامس

الروح الأولى

أخذت أقترب من الأرض .. وقد لاح لى منظرها كأننى هابط من طائرة .. وبدأت أميز الشاطئ الممتد .. وبدت لعينى صفرة الرمال وزرقة المياه .. ثم استطعت أن أميز المظلات التى تناثرت على طول الشاطئ كأنها نقط متجاورة .. ورأيت الناس كأنهم هوام تزحف على الرمال .

وزاد اقترابى حتى بدأ لى كل شئ فى وضوح تام .. وأخيرا أحسست أننى قد هبطت الى الأرض ، وأننى عدت مرة ثانية بين البشر .. وان كنت ما زلت أشعر أنى مطلق من قيود الجسد .. وأننى أستطيع أن أسرى بينهم كما يسرى النسيم ، وأن أنتقل من مكان الى مكان دون جهد أو مشقة .. فلم تكن الجدران والحجب التى تعوق الأجساد البشرية لتعوقنى .. اذ كنت روحا طليقة .

ونظرت الى الساعة فى معصم رجل قد استلقى فى الشمس .. فاذا هى الحادية عشرة . وكان موعدى مع الآنسة الغريقة .. أو على الأصح موعد خروج روحها هو الثانية عشرة .. فقلت لنفسى : أجول جولة بين « الكبائن » والمظلات .. كما تعودت أن أفعل وأنا على قيد الحياة .. اذ لم يكن يسرنى شئ قدر أن أمتع البصر بتلك الأجساد المستلقية على

الرمال .. تلك الأجساد الناضجة المستوية .. التى تمددت فى استرخاء وفتور .. ولكنه استرخاء في جوفه جمال يتحفز ، وفتور فى باطنه فتنة تتوثب .. فهو استرخاء ملؤه الاستدعاء وفتور ملؤه الفتنة والاغراء .

وبدأت السير أو على الأصح السريان بين طوابير الأجساد المتحركة المتدفقة كأنها جنود تستعرض .. وان كانوا يختلفون بأنهم يستعرضون أنفسهم ، فكل منهم عارض ومستعرض .. ومعجب ومتعاجب .. وكلهم يتكلفون فى كل ما يفعلون .. فى سيرهم وفى حديثهم وفى ضحكهم .. كأنهم ممثلون على خشبة مسرح .. اذ يحس كل منهم أن الأبصار لا عمل لها الا النظر اليه والى قوامه المشوق أو وجهه الجذاب أو شخصيته الشهيرة .. فيسير كأنه فى معرض أزياء أو مسابقة جمال .

وخطر لى خاطر خبيث طالما تلهفت اليه وأنا جسد حى .. خاطر كان من المستحيل على تنفيذه وقت أن كنت من البشر .. اللهم الا اذا حصلت على ما يسمونه « طاقية الاخفاء » .. والذى لم أكن أتمنى فى حياتى شىء قدر الحصول عليها .

أجل .. خطر لى ذلك الخاطر الخبيث الذى ما انفك الشيطان يسر لى به فى حياتى .. والذى أنكر أنى حاولت تنفيذه مرة ولكنى بؤت بالخيبة والفشل ...

كان ذلك منذ بضع سنين وقد جلست خارج «الكابينة» مع أحد أصدقاء السوء .. وكانت صاحبتنا – وهى صديقة حديثة العهد بمعرفتنا – قد أغلقت عليها الباب وأخذت تخلع ملابسها لتلبس المايوه .. وتمنيت وقتذاك لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك الجدران التى تخفى عنا الفتاة وقد خلعت ملابسها وبدت عارية كحواء من غير ورقة توت .. وتخيلت ذلك الصدر الممتلىء وقد تحرر من قيود الملابس وبدأ طليقا فى ثورة وعنف بذلك اللون الأبيض المشرب بالحمرة ، وذلك الامتلاء المتماسك

فى غير ترهل ... ونظرت الى صاحبى فرأيته يهز رأسه أسفا كالمحروم الذى يتضور جوعا وأمامه أشهى الطعام .

ودفعنا جنون الصبا لأن ندبر مؤامرة تهيىء لنا أن نبصر ذلك التمثال الحى الرائع .. فانتظرنا حتى خرجت الفتاة ونزلت الى البحر ثم عادت لتجفف جسدها وتبدل ملابسها مرة أخرى .

وقبل أن تدخل الفتاة كنا قد تسللنا الى داخل « الكابينة » وأختبأنا خلف ستار أخفانا عن أبصارها .. ووقفنا ننتظر .

ودخلت الفتاة تقفز وتتواثب ، وأخذت تتغنى باحدى الأغنيات .. وكان أول ما فعلته أن وقفت أمام المرآة وهى تتأمل جسدها من قمة رأسها الى أخمص قدميها ثم ترفع ذقنها الى أعلا وتتأمل وجهها ..

وطالت وقفتها أمام المرآة وهى تتأمل نفسها .. ونحن واقفان على أحر من الجمر .. ننتظر أن ترفع عن جسدها تلك الغلالة الشفافة التى ألصقتها المياه بجسدها .

وبدأت الفتاة تضحك أمام المرآة وافتر ثغرها فبدت أسنانها لامعة بيضاء .. فمدت رأسها الى المرآة وفتحت فمها على آخره وبدت لنا كأنها تفحص أحد ضروسها .

وطال الانتظار .. وازداد بنا الشوق .. حتى رأينا أخيرا أن قد مدت يدها وأنزلت احدى حمالات «المايوه» .

وكتمنا أنفاسنا .. وامتدت أعيننا .. واشرأبت أعناقنا .. فقد بدا لنا أعلا الصدر .. وانتظرنا أن تنزل الحمالة الأخرى فيبدو لنا الصدر كاملا .

وفى تلك اللحظة أبصرت بصاحبى قد وضع يده على أنفه فانه يكتم «عطسة» على وشك أن تفلت .. وبدا لى يهتز كأنما « العطسة» تحاول

أن تجد لها مخرجا . وأخيرا حدثت الكارثة ، وعطس صاحبى «عطسة» زلزلزت منها الارض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وقالت الفتاة ما لها .

أجل لقد صرخت الفتاة .. وأعادت «المايوه» كما كان ونظرت الينا نظرتها الى طفلين عابثين .. وطردتنا من الكابينة كما طرد آدم من الجنة .

ذكرت تلك الحادثة .. ورأيتنى الآن أستطيع أن أشبع لهفتى الماضية .. فأنفذ الى كل «كابينة» وأتمتع برؤية الأجساد البضة العارية ، وأحقق تلك الأمنية التى طالما لوح لى بها الشيطان .

ولكنى شعرت بزاجر ينهانى عن هذا العبث .. ماذا تركت اذا لهؤلاء البشر اذا كنت سأنساق الى هذه الرغبات البشرية التافهة ؟ . وأى فارق سيكون بينى وبين أى انسان اذا اندفعت فى هذا اللهو الفاضح ؟ !

أى عار يمكن أن يحلق بنائب عزرائيل .. وهو يتسلل داخل «الكبائن» مسترقا النظر الى الأجساد العارية .. ؟

وهكذا طردت من نفسى ذلك الخاطر واكتفيت بأن أسير وسط الناس .. قانعا بمشاهدة مناظرهم المضحكة وسماع أحاديثهم المسلية .

وحلا لى أن أقف برهة تحت احدى المظلات .. بين امرأتين جالستين .. أو على الأصح بين لسانين متحركين .. كأنهما المنشار الذى يقولون فيه « طالع واكل .. نازل واكل » ..

قالت الأولى :

– أترين تلك السيدة الطويلة التى ترتدى «البيجاما» الزرقاء ؟

– أتقصدين تلك التى تسير مع الرجل القصير ؟

- نعم .. انه زوجها .. زكى بك عبد القوى .. مسكين هذا الرجل .. انهم يقولون أنها تضربه ضربا مبرحا وأنها لاتعود الى دارها قبل الساعة الثالثة صباحا ..

- ولم يطلقها ؟

- انه يحبها !

- على أية حال انه خير من عبد الرحيم بك الذى سمعت أنه يرجو زوجته ألا تبيت فى خارج الدار أكثر من يومين فى الأسبوع .. وقيل انها وعدته بذلك !

- أتدرين أن سنية هانم قد طلقت ؟

- ولكنها لم يمض على زواجها سوى أسبوع واحد !

- لقد اتضح لزوجها غرامها مع السائق ..

وشعرت بالتقزز مما سمعت .. ولم يكن تقززى من أصحاب الحوادث أنفسهم بقدر تقززى من تلك الألسنة التى تهوى الفضائح وتلذ لها كما يلذ للنهم طيب الطعام .

وانتقلت الى مظلة أخرى قد جلس تحتها شابان يتحدثان ، قال الأول :

- أترى تلك السيقان الممدودة ؟

- لا تحملق هكذا فان زوجتك ترقبك .

- اذا فهيا بنا نمشى قليلا .. فانى أحس كأنى فى سجن .

- على ألا نقرب المنطقة الخطرة ؟!!

- المنطقة الخطرة لم يغشها الخطر بعد .. لأنى لا أبصر فى «الكابينة» غير زوجها واقفا على قدميه .

– عجبا .. على قدميه حتى الآن ؟!

– أجل فانه لايقف على يديه الا عندما تحضر هى وتنزل الى البحر .

وحيرنى حديث الشابين عن منطقة الخطر .. وعن الزوج الذى لا يقف على يديه الا عندما تنزل زوجته الى البحر .. وظننت أن بهما لوثه .. وصممت ألا أفارقهما حتى اكتشفت ما خفى من أمرهما .

وبعد لحظة قبض أحدهما على يد الآخر بشدة قائلا :

– لقد أقبلت .

وأحسست أنا أنها حقا قد أقبلت .. بل لم يكن هناك مخلوق على الشاطىء لم يحس أنها أقبلت ... ورأيتها شقراء براقة .. ذات وجه يضىء فى النفوس كما يضىء البدر فى الليلة الظلماء .. لايميزه عن البدر . الا ذلك الأحمر الذى رسم بدقة على شفتيه .. وهذه الابتسامة الحلوة التى تفتر عنها تانك الشفتان الرقيقتان .

ولم يعد يخفى على ذكائى – ان كان هناك ذكاء – أن صاحبتنا هذه هى الخطر .. وأن «كابينتها» وما حولها منطقة الخطر .. وأن الشابين متزوجان .. وقد حرمت عليهما زوجتاهما الاقتراب من هذه المنطقة والا حدث لهما مالا تحمد عقباه .

وبعد هنيهة أبصرت صاحبتنا قد ارتدت «المايوه» .. أو شيئا شبيها به .. مكونا من قطعتين .. قطعة شدت الى صدرها وقطعة شدت الى خصرها .. ويعلم الله أن القطعتين قد أظهرتا من الجسد أكثر مما سترتاه . واندفعت صاحبتنا تعدو الى البحر وخلفها ما يقرب من عشرة شبان يصيحون فى شبه مظاهرة .. وبدا فى البحر نشاط عجيب ، فقد

أثارت الفتاة ومن حولها من الشبان ضجة هائلة .. فهى تتصايح وهم يتصايحون ، وهى تتضاحك وهم يتضاحكون ، وقد أخذوا يقلبونها بين أيديهم كأنها دمية جميلة وهى تندفع من هذا الى ذاك .. والناس على الشاطىء ينظرون الى ذلك فى دهشة وعجب .

وحانت منى نظرة الى ناحية من الشاطىء فرأيت رجلا قد انفرد بنفسه .. وانهمك فى ضرب البلانسات ، والسير على يديه .. دون أن يلتفت الى شىء مما حوله . فقد استنفدت هذه الشقلبة كل اهتمامه ، وبدا كأنه يؤدى واجبا قد كلف به .

ونظرت الى الشابين فاذا هما قد أغرقا فى الضحك .. وقد أخذا يرقبان ذلك السائر على يديه ، وقال أحدهما :

- لقد بدأ «بلانس» افندى عمله .

وأدركت حينئذ أن الرجل لابد أن يكون زوج الصارخة الصائحة .. وأنه من هواة الشقلبة والسير على اليدين .. وأنه ينتهز فرصة انهماك زوجته فى اللعب مع أصحابه والعبث بين الأمواج .. فيبدأ هو « الشقلبة » على الشاطىء والسير على يديه .. دون أن يهتم كثيرا بما تفعله زوجته الجميلة مع أصدقائه المخلصين .

وخطر لى أن أذهب اليه فأقيمه على قدميه .. ثم أصفعه بضع صفعات على صدغيه .. وأطلب منه أن يستدعى زوجته من بين الذئاب الضارية ... وأخبره أنه اذا كان لابد له من السير على يديه .. فليغلق الدار على زوجته أولا ، وليسر على يديه بعد ذلك كما يشاء .

ولكنى تمالكت نفسى .. فقد تذكرت أن هناك فى الحياة الكثير من

هذا النوع .. وتذكرت أيضا أنى لم أنزل الى الأرض لأقوم أخلاق الناس بل لآخذ أرواحهم .

وهنا تذكرت الفتاة الغريقة التى أتيت الى الشاطىء خصيصا لانقاذها .. ونظرت الى أقرب ساعة الى فاذا بها الحادية عشرة والنصف فرأيت أن الوقت قد أزف للبحث عنها ومنعها مما قد يؤدى بها الى الهلاك .

ولم يطل بى البحث فقد وجدتها سريعا .. اذ أحسست فى نفسى بما عرفنى بها .. ودلنى عمن تكون هذه «الزيزى» بين كل أولئك الفتيات اللاتى احتشد بهن الشاطىء .

ووقفت أمامها أتأملها .. فأخذت بها ! وحمدت الله أن ألهمنى الصواب فجئت لانقاذها ... فقد كانت حقا تستحق الانقاذ !!

وقبل أن أحاول رسم صورتها فى الأذهان .. يجب أن أبدأ القول بأنها لم تكن على كثير من الجمال ، وأعنى بالجمال ذلك الشىء البراق الذى يبهرنا ضوؤه ... كتلك المرأة الشقراء المضيئة التى رأيتها منذ لحظات وقد التف حولها الشبان وتطلعت اليها الأعين ... أجل لم تكن الفتاة بيضاء ولا شقراء ، ولم تكن فى تقاطيعها دقة متناهية أو جمال عجيب .. ولم يكن فمها كخاتم سليمان ، ولم يكن على خديها وردتان أو تفاحتان .. ولم يكن على وجهها أى أثر لأصباغ مرسومة بدقة واتقان ، حتى تخفى بعض ما به من هنات ... لم يكن بها شىء من هذا ... ومع ذلك فقد كان بها كل شىء !!

كان أول ما أبصرته بها وهى متكئة على رمال الشاطىء : شعر قد تهدل على كتفيها ثم كسا ظهرها واسترسل على الرمال الصفراء .. كأنه

ينابيع من الأمل العذب تسترسل فى صحراء من اليأس جرداء مقفرة .

ووقفت أتأمل ذلك الشعر .. ورأيتنى أستعيد الى ذهنى قصة تعودت جدتى – رحمة الله عليها – أن تقصها على فى طفولتى .. وكان يحلو لى أن أستعيدها منها مرارا وتكرارا .

هذه القصة ، وأغلب ظنى أن معاصرى فى سن الطفولة قد سمعوها كما سمعتها وأعجبوا بها كما أعجبت ، هى قصة لولية بنت مرجان وعشيقها يوسف .. وأهم مافى القصة .. والذى جعلنى أتذكرها فى ذلك الوقت هو أن هذه «اللولية بنت مرجان» كانت من فرط طول شعرها ... تدلى به من النافذة ليصعد عليه أبوها وأمها عندما كانوا يصيحون بها : « يا لولية يا بنت مرجان دلدلى شعورك الطوال وخدى أمك وأبوك من حر الجبال » .

ولا أدرى الآن بالضبط لم كان أبوها وأمها يصران على الصعود من النافذة والشعبطة على شعر لولية بدلا من الصعود على السلم كبقية خلق الله .. وان لم يكن هناك سلم للبيت فلم لم يقطنا فى دور أرضى ويوفرا على نفسيهما مشقة تسلق الشعور والشعبطة على النوافذ .

على أية حال لم يكن هناك وقت للتساؤل .. فقد أحسست أن هذه « اللولية » المتكئة على الشاطىء .. تستطيع هى الأخرى .. لو أدلت بشعرها الى أى انسان يائس شقى .. لرفعته من هاوية اليأس الى قمة الأمل ، ومن حضيض الشقاء الى ذروة النعيم .

وتلفتت الفتاة ، فأبصرت وجهها .. وجها كما قلت غير براق ولا ملون ولكنه وجه لوحته الشمس فبدا سمرة حمراء .. أبصرت فيه عينين

خضراوين كأنهما عينا هرة .. لم يكن فى وجهها شىء عجيب .. ومع ذلك فقد كان أعجب وجه رأيته .

كان الفتاة فى نحو الرابعة عشرة ، وقد ارتدت بلوزة بيضاء وبنطلون فانلة وقد شمرت عن ساقيها حتى ما تحت الركبة وبدت ساقاها ممتلئتين قد علاهما زغب أصفر خفيف .. وكانت تقلب صفحات مجلة فى يدها ... وان كان يبدو لى أنها ليست منهمكة تماما فى قراءتها ، فقد كانت تسترق البصر الى فتى قد جلس تحت مظلة قريبة .. وكان الفتى يبادلها النظرات .. ثم رأيته يشير اليها برأسه نحو البحر فاذا بها تطوى الصحيفة ، ثم تنهض فتختفى داخل الكابينة وهممت بالدخول خلفها .. ولكنى خشيت أن تكون قد خلعت ملابسها لترتدى المايوه .. فانتظرت فى الخارج ... وفعلا صدق ظنى فلم تمض بضع لحظات حتى أبصرت بنموذج رائع الجمال بديع التكوين ، حتى أقسمت فى نفسى أنه لو عاد صانع فينوس الى الحياة وأبصر الفتاة فى وقفتها على الشاطىء لحطم تمثاله ، وجعل من الفتاة نموذجا جديدا له .. لقد أشعرتنى بقدرة الله كما لم يشعرنى أى شىء أبصرت به فى هذه الحياة .. وخيل الى أنها لو وجدت فى عصر موسى لأغنته عن عصاه وعن معجزاته .. فقد كان يكفيه أن يقدمها للكافرين حتى يؤمنوا بالله وبقدرته .

واندفعت الفتاة الى المياه وقد امتطت صهوة قارب صغير - برسوار - ... وبدا لى أن الفتى قد سبقها الى البحر ، ووقف ينتظرها خلف أحد البراميل .. وابتعدت الفتاة عن الشاطىء ، ولحق بها الفتى فقفز بجوارها وأخذ منها المجدافين واختفيا عن الأعين فى عرض البحر .

واندفعت وراءهما ، فقد بلغت الساعة الثانية عشرة الا خمس

دقائق ... أى لم يعد هناك فى حياة الفتاة - بفرض أنى لن أتدخل فى الأمر - الا خمس دقائق .

واقتربت منهما فاذا هما قد استلقيا فوق البرسوار كل منهما فى ناحية .. وقد تقارب وجهاهما وأخذا يتهامسان همس العشاق .

وفجأة علت موجة من أمواج البحر فقلبت البرسوار وحملته بعيدا . ووجد الفتى والفتاة نفسيهما يغالبان الموج .. والتيار يدفعهما بعيدا عن الشاطىء .

وبدأت الكارثة تحل .. فقد وهنت قوى الفتاة .. وحاول صاحبها الوصول اليها دون جدوى .. وأحسست أن هذه هى اللحظة الحاسمة التى اما أن أشير فيها للفتاة بعصا عزرائيل فتصعد روحها معى .. وأترك جسدها يهوى الى قاع البحر .. واما أن أتقدم لانقاذها فأعيدها الى الشاطىء سالمة من غير سوء .. ونظرت الى الفتاة الجزعة ، فأحسست بنفسى لهفة لأن أنقذها بدل المرة .. مائة مرة .

وكان الوقت يمر سريعا .. وروح الفتاة قد بدت حائرة قلقة .. فلا هى بخارجة ، ولا هى باقية ... وكان على أن أعمل عملا حاسما .

وأخيرا استقر رأيى على الطريقة التى سأنفذها بها .. فقد وجدتها طريقة مثلى .

أمسكت بالعصا .. ثم أشرت بها اشارة خفيفة الى الفتى الذى قد أخذ يصارع الموج للوصول الى الفتاة دون جدوى .. فغادرت روحه الجسد فى لمح البصر .. فوضعتها بسرعة فى الكيس الذى أعطانيه عزرائيل .. ودلفت بسرعة الى جسده فاحتللته .

وأحسست أن روح الفتى قد أزعجتها هذه المفاجأة فقد كانت لاتنتظر

قط أن تفارق جسدها فى ذلك الوقت ، ولكنى أخبرتها ان هذه المفارقة مؤقتة وأننى سأعيدها بمجرد أن أنقذ الفتاة .

وتقدمت الى الفتاة .. مندفعا بين الأمواج بسرعة خارقة ... ولم تمض بضع لحظات حتى كنت قد رسوت بها على أقرب صخرة .. فرفعتها اليها .. وأرقدتها بجوارى .. وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط ، وهى تلهث من فرط الجزع والتعب .

ولم يكن قد اصابها مكروه .. وكانت فى وعيها تماما .. وكل ما فى الامر أنها كانت مشدوهة مذهولة .. فأخذت أهدىء من روعها حتى تمالكت نفسها وعادت اليها ابتسامتها وحمرة وجهها .

وهنا كان يجب على أن أعيد روح الفتى الى جسده وانطلق فى طريقى .. ولكن كانت تحدو بى رغبة جارفة فى الجلوس الى الفتاة واحتوائها بين ذراعى .. فتعللت بأنه يجب على أن أنتظر حتى اذهب بالفتاة آمنة الى الشاطئ ، والا أغرقها الفتى فى الطريق مرة أخرى .

وكانت أول ما فاهت به الفتاة هو أن سألتنى فى دهشة ، مشيرة الى شيء بجوارى :

– ما هذا ؟ !

ونظرت الى جوارى فاذا العصا والكيس والورقة وعلبة صغيرة بها الجهاز اللاسلكى ! !

يا للمأزق الحرج .. لقد أضحت عدة عزرائيل أشياء منظورة بمجرد أن دخلت أنا الى الجسد .. بعد أن كانت أشياء شفافة لا يبصرها أحد سواى .

ونظرت الى أدوات الموت ولم أدر بم أجيبها .. ترى ماذا تقول الفتاة اذا صدقتها القول ورويت لها الحقيقة .. ماذا تقول اذا أخبرتها أن هذه العصا هى التى كنت سآخذ بها روحها .. وأن هذا الكيس ترقد فيه روح صاحبها ، وأن هذه الورقة بيان بالأرواح التى سأصعد بها الى السماء .. وأن العلبة هى جهاز للاتصال بعزرائيل ! !

لتتخيل أية فتاة أنها قد جلست مع صاحب لها على صخرة فى البحر بعد أن أنقذها من الغرق .. ثم تحدث اليها بمثل هذا الحديث الذى كان لايعدو أن يكون حقيقة بالنسبة الىّ ... ترى ماذا تفعل ؟ !

أغلب ظنى أنها لن تفعل اكثر من أن تقذف بنفسها الى الماء مرة أخرى هربا من جنونه المطبق .

ونظرت الى الفتاة وهززت رأسى وأجبتها ببساطة :

لا أدرى ! ! لقد وجدتها هنا ...

ورأيتها نمد يدها لتمسك بالورقة والعصا ، فصحت بها مستنكرا :

- لا ... لا ... هذه الأشياء لابد أن تكون لشخص تركها هنا وسيعود لأخذها ، ولست أرى من اللياقة أن نعبث بأمتعة الغير .

ثم حاولت أن أغير مجرى الحديث ، فابتعدت بها الى ناحية أخرى من الصخرة قائلا :

- كيف أنت الآن ؟

ليس بى شىء .. لقد كنت على وشك الغرق ورأيت الموت بعينى (وكدت اقول لها : انك لا زلت ترينه بل تضعين يدك فى يده) . ولولاك يا أحمد لما كنت الا جسدا هامدا .

- أحمد ؟ ! .. أنا يوسف ! ؟!

- يوسف ؟ !

ونظرت الىّ الفتاة محملقة فى دهشة .

يا للحماقة .. ماذا قلت ؟ ان أحمد هذا هو لاشك صاحبها ... وكان يجب علىّ أن أعرف ذلك .. وأسرعت باصلاح غلطتى فقهقهت بصوت عال وادعيت انى أقصد المزاح ليس الا .

وجلسنا متجاورين .... وكان أول ما اتلهف عليه هو أن أمسك بشعرها فأتحسسه بيدى ... وأعبث فيه بأصابعى ... فلم أتردد فى أن أفعل ... لقد كانت لحظاتى قصيرة مع الفتاة ... ومن السخف أن أحرم نفسى مما أتلهف عليه .. وأحطت كتفيها بذراعى ، فلم تغضب الفتاة . بل رأيتها تزداد التصاقا بى .. وأحسست برأسها يستريح على صدرى ... فلم أتردد فى أن أنال الأمنية الثانية ومسست بشفتى شعرها .. ونفذ الى أنفى عبيره .. فملأنى نشوة ... وخيل الى أنى قد أصبحت ثملا .

ورفعت الى عينيها .. هاتان العينان اللتان أحس أن بهما سهاما تنفذ الى قلبى مباشرة .. هاتان العينان اللتان أحس أن وراءهما عالما آخر مليئا بالسحر ... هاتان العينان اللتان لم أشك لحظة فى أنهما من نوافذ الجنة .

ومددت يدى فأمسكت بذقنها الدقيق .. ولمست بأصابعى شفتيها الملتهبتين ، ثم رفعت وجهها الىّ واقتربت بشفتى من شفتيها .. فرأيتها قد أسبلت عينيها ... فأغمضت عينى أنا الآخر وأطبقت على شفتيها .. ونلت الأمنية الثالثة .. والأخيرة .

وفى تلك اللحظة نظرت خلسة الى أقصى الصخرة .. فلمحت الكيس يضطرب بما فيه .. وأدركت أن صاحبنا « أحمد أفندى » .. قد ساءه أن استغل جسده هذا الاستغلال الوقح .. وأن انتهز فرصة حبسه فى الكيس فأقبل صاحبته على مرأى منه .. دون أن يحرك ساكنا .. اللهم الا محاولة « الفلفصة » من داخل الكيس .

ورأيتنى أقول له فى نفسى معتذرا عن فعلتى :

– يا صاحبى هوّن عليك ... انها لم تزد عن قبلة .. أتراك تبخل على بها .. ثمنا لانقاذها .. ومع ذلك فانى لم أستعمل فيها سوى شفتيك ... وقد علمتك وعلمتها كيف تكون القبل .. وسأتركها لك بعد هنيهة تتمتع بها كما تشاء ... ولولاى لما استطعت لقاءها بعد اليوم الا فى الآخرة .. ومن يدرى ان كنت ستلقاها حتى هناك .

ورفعت وجهى عن وجه الفتاة .. وتركت رأسها يستند مرة أخرى الى صدرى .. وهممت أن أفضى اليها ببعض أحاديث الغزل الذى كنت أجيده فى حياتى .. ولكنى سمعت فجأة صوتا خافتا جعلنى أرهف أذنى ... وأصيخ السمع جيدا .

كان الصوت أشبه بأزيز خافت يصدر من ذلك الجهاز اللاسلكى الصغير .. وبدأت أفيق من سكرة الغرام ونشوة الهوى .. وتطاير من رأسى أثر القبل ... ان عزرائيل لاشك يريد الاتصال بى ليطمئن على ما فعلت .

ويلى منه .. وويله منى .. لقد كادت الفتاة الساحرة تنسينى اياه .

وزاد الأزيز وضوحا فتركت الفتاة جانبا وعدوت اليه .. واختفيت به عن الفتاة خلف احدى الصخور .

وقبل أن أحاول اخراجه من صندوقه أمسكت بالعصا فأخرجت روحى من الجسد ، وأعدت اليه روح الفتى .. ولم تكد الروح تستقر فيه حتى رأيت الفتى يندفع الى الفتاة فيحتويها بين ذراعيه .. ويقبل على شفتيها بلهفة وشغف .. تماما كما كنت أفعل منذ لحظات .

وأمسكت بالجهاز ، ورفعت سماعة صغيرة الى أذنى ، وصحت قائلا :

– هالو !

وأجابنى صوت ناعم رقيق .. جعلنى اهتز من فرط الطرب .. صوت رن فى أذنى .. « سحر لعمرى له فى القلب ترديد » .. فكأنه مس أذنى كما تمس الشفاه الشفاه .. وكأنما رنينه هو رنين القبل .. قال الصوت العجيب :

هالو .. مين يا فندم .

وطربت فى نفسى .. وذهب عنى ذلك الارتباك والشعور بالتقصير فى الواجب .. والخجل من أن يعلم عزرائيل ما كنت أفعل .. ولم الخجل .. وعزرائيل نفسه كان يفعل مثلما كنت أفعل .. فأغلب ظنى أنه كان هو أيضا غريق فى فيض من خمر الشفاه .. وأنه كان يرتع فى مرتع للهوى خصب ظليل ... وما أظنه لو رأى صاحبتى الا لكان عاذرى فيما فعلت .. فلا يحس بجنون الهوى الا العشاق .

ورأيتنى أبتسم وقلت لنفسى .. امزح معها قليلا ، فقد لا تسنح الفرصة مرة أخرى بالحديث مع احد الحوريات .. حتى ولا باللاسلكى .. وسألتها مداعبا :

– حضرتك مدام عزرائيل ؟

وأجابتنى بضحكة حلوة ناعمة .. كأنما سرها أن أقرنها بعزرائيل ، وأجابت متصنعة التواضع :

– لا يا فندم .. لم يحدث لى هذا الشرف بعد .

– أى شرف ! ! انه هو الذى يشرفه أن تكونى مدام عزرائيل .. فان هذا الصوت الملائكى ...

وهنا قاطعتنى ضحكة خشنة .. فأدركت أن عزرائيل قد أخذ منها السماعة .. وسمعته يقول ضاحكا :

– كفى مغازلة .. خبرنى ماذا فعلت ؟

ووجدتنى أتلعثم ، وأصابنى الارتباك ، ولم أدر بم أجيبه .. وأردف هو متسائلا :

– أقبضت الروح الأولى ؟

– حتى الآن .. كلا .

وصاح فى دهشة :

– الساعة الآن الواحدة .. وميعادها الساعة الثانية عشرة ... ومع ذلك تقول : حتى الآن كلا ؟ ! .. فيم انتظارك وقد مضت ساعة على الموعد .

ولم أجبه بكلمة .. اذ لم أدر بم أجيب .. فازداد به الحنق .. وسأل فى دهشة :

– تكلم ! ! .. ألم تجد الفتاة ؟

– بل وجدتها .. وعرفتها من أول نظرة .

- ومع ذلك فلم تأخذ روحها بعد .. ألم تسبح فى الماء ؟

- بل سبحت .. وليتها ما سبحت .

- ليتها ما سبحت ؟ ! .. لعلها لم تغرق .

- بل غرقت .. وليتها ما غرقت .

- فلم اذا لم تأخذ روحها ؟

- لقد رفضت روحها الصعود .

- رفضت !! .. لاتكن أبله .. قل كلاما غير هذا .

- اذا فقد رفضت أنا أن آخذها .

- أنت الذى رفضت ؟ ! .

- نعم أنا ! !

- وتقول ذلك دون خجل ولا استحياء ! ! فيم كان نزولك اذا .. وأين وعدك الذى أعطيته لى .. لم تف به ؟

- مكره أخاك لا بطل .

- وما الذى أكرهك على أن تحنث به ؟

وصمت لحظة ، ثم أجبته هامسا :

- شعرها .. يا سيد عزرائيل .. شعرها .. وصدرها وساقاها وعيناها .. آه لو رأيتها كما رأيتها .. لما ترددت فى أن تستبدلها بحوريتك .. ولهبطت من السماء الى الأرض فلم تفارقها لحظة واحدة .

وهمس عزرائيل فى حنق :

- كف عن هذا الهذر .. والا سمعتك .

ثم تكلم بصوت عال :

- وهكذا تقول انك رفضت أن تأخذ روحها .. من أجل شعرها وصدرها .. وساقيها وعينيها .. ما شاء الله .. يا لك من همام .. ولكن ليس الخطأ خطأك . فقد كان على أن أتوقع كل ما حدث .. وكان يجب على أن أعرف أنك زير نساء منذ ان طلبت منى أن أتركك بين السماء والأرض ... على أن أحضر لك بضع حوريات لتسليتك والترفيه عنك .. وكان من الحمق ان أطلب منك أن تقبض روح امرأة .. بعد أن رأيت منك تلك اللهفة عليهن .

ثم سكت برهة .. وأردف فى صوت أكثر رقة :

- قد يكون لك العذر فيما فعلت .. على أية حال دعك من صاحبتنا هذه .. واتركها لى .. وعليك بغيرها ممن سطر فى الكشف .. فلا أظنك ستجد فيه من تضعف أمامه وترق له .

وهنا سمعت صوت الحورية تستحثه على انهاء الحديث فقد بدأ يصيبها الملل ، وسمعته يقول بلهجة سريعة :

- هه .. الى اللقاء .. سأعتمد عليك .. وسأتصل بك مرة أخرى .

ووضعت الجهاز جانبا بعد أن ودعت عزرائيل .. وألقيت على الفتاة نظرة أخيرة .. ثم سريت بجوارها فمسست شعرها وشفتيها مسا خفيفا وعدت الى الشاطىء .

وكانت الساعة وقتئذ قد بلغت الواحدة والنصف .. ولم يبق على انهيار البيت فوق المعلم حنفى وعائلته الا نصف ساعة . فاندفعت كالرياح العاتية .. ولم تمض لحظات حتى كنت فى حى سيدى زينهم بالقاهرة ، أبحث عن البيت المنشود .

الفصل السادس

فى سيدى زينهم

هنا سيدى زينهم .. هنا المقابر قد رصت فيها الأجساد على سطح الأرض لا فى باطنها .. هنا الأحياء الذين يقومون بدور الأموات .. والموتى الذين يسعون على الأرض .. هنا قد تجمع كل ما يحاول أولو الأمر محاربته .. ولكنهم يفعلون كل شىء الا محاربته .

يا لهذا البلد من زعمائه وكبرائه ووزرائه .. يا لهذا البلد من شيوخه ونوابه وكتابه .. يا لهذا البلد من كل أولئك المرتزقة الذين بيدهم أمره .

فى العصور الوسطى كان كثير من الجيوش المحاربة يتكون مما يسمونهم « الجنود المرتزقة » .. وهم جنود يحاربون من أجل الرزق .. ومن أجل أكل العيش فالقتال عندهم مهنة وحرفة .. لايهمهم كثيرا أن يهزموا أعداءهم الا بقدر ما يحصلون عليه من غنائم وأسلاب وبقدر ما ينتهكونه من حرمات وما يسبونه من سبايا . لا يهمهم الغرض الذى يحاربون من أجله .. ولكن يهمهم الأجر الذى يدفع لهم .. فليس لهم من أنفسهم دافع للانتصار من أجل وطن أو مبدأ .. وسيان عندهم هذا الجيش أو ذاك .. وهذا الوطن أو ذاك .. فليس لأيهم فضل على الآخر الا

بالأجر الذى يدفع .. وهم لايحسبون أن هناك ما يستحق التضحية أو بذل النفس .. ولا يبصرون أمامهم الا المصلحة الخاصة لأنفسهم .

ويخيل الى أن من بيدهم الأمر فى هذا البلد المسكين يشبهون الى حد كبير أولئك الجنود المرتزقة .. وأن عملهم لا يعدو فى حقيقته عن أن يكون أكل عيش .. وأن كل مطلبهم هو الغنائم من مختلف الأنواع والأشكال .. من مال وشهرة وسلطان وجاه .. الخ .. وهم يرون أن خير طريق يوصلهم الى تلك الغنائم هو محاولة التظاهر فى سبيل هذا البلد .. فتجدهم يتصايحون ويتزاحمون .. ويخطبون ويكتبون .. ويبكون ويستبكون .. ولا يفعلون أكثر من يأمروا الناس بالبر وينسون أنفسهم .

ما صاح منهم صائح الا وله من صيحته مأرب .. وما خطب فيهم خطيب الا وهو يرجو من خطبته مطلبا .. فهو فى قرارة نفسه لايهمه ما يقوله فى قليل ولا كثير ، ولكن يهمه ما سيعود عليه ، هو ، من ذلك القول ، ولايهمه قط أن يأتى بفائدة قدر ما يهمه أن يقول الناس عنه أنه هو الذى أتى بها .. ولو خير بين أن تحدث الفائدة فعلا ولا يعرف الناس أنه صاحبها ، وبين أن يعرف الناس أنه صاحبها دون أن يكون لها أثر حقيقى فعال ، لفضل الأمر الأخير ..

فكلهم يتكأكأون على محاربة الفقر والمرض والجهل حتى باتت الكلمات الثلاث من أشهر الكلمات وأقربها الى الألسن .. ومع ذلك فالفقر والمرض والجهل مازالت بخير وعافية .. لا لشىء الا لأن زعماءنا وكبراءنا ووزراءنا وخطباءنا وشيوخنا ونوابنا وكتابنا .. كلهم دون أن نستثنى منهم فردا .. ليسوا الا مرتزقة .

مثل هؤلاء لا يبغون الا مصلحة خاصة . ولا يريدون الا صيحات اعجاب .. حتى هذا الكاتب الذى تفيض مقالته بالنقد لهم وبالسخرية

منهم . لا يهمه من مقاله الا أجر المقالة .. أو كلمات الاعجاب والتهنئة بعبقريته ولوذعيته . أما محاربة الفقر والمرض والجهل .. فهى أبعد ما تكون عن ذهنه .. والا لو كان صادقا فى قوله لما أضاع وقته فى تلك الكتابة التى كان يعرف أنها لا تجدى فتيلا .. ولحاول أن يصرف ذلك الوقت والجهد فى الاحسان الى فقير ، أو مواساة مريض ، أو تعليم جاهل .. ولكنه يعلم أنه لو عمل ذلك لما أحس به الناس ولما أعجب به أحد .. اللهم الا ذلك الفقير أو المريض أو الجاهل .. وهم لا يهمونه فى شىء .

ما أعجب أولئك الذين بيدهم الأمر فى هذا البلد .. هم يحرصون على المناداة بمحاربة الفقر والمرض والجهل ، مع أن المسألة فى حد ذاتها لا تحتاج الى حرب وقتال .. بل لا تحتاج منهم الا أن يأمروا بالبر ولا ينسوا أنفسهم .. هذا هو كل ما فى الأمر .. أنهم هم الذين لديهم حل العقدة .. فليبسطوا أيديهم .. يجدوا الأعداء الثلاثة قد انكمشت وفرت هارة .. وليعملوا بقول القائل[1] :

القائل

«أما لو تناصف الناس فأخذ من الغنى حق الفقير واستنقذت الكنوز من خزائن اللؤماء ، وتلوقيت الأموال من أكف السفهاء ، اذا فأى خير يعم الأرجاء ، ويجلل الأنحاء ، ويطبق الآناء ..» .

ولكن كيف يتأتى ذلك فى بلد : السفهاء فيها كبراء ، واللؤماء عظماء .. مسكين هذا البلد .

جل كل ذلك بذهنى وأنا أقلب بصرى فى الأزقة الضيقة بين تلك البيوت التى «يمسك بعضها من الذعر بعضا» والتى تفوح منها العفونة ،

(١) محمد السباعى فى كتاب « السر)

وتزين جوانبها أكرام القمامة التى أولم فيها الذباب، ولائمه .. وقد ركدت مياه الغسيل النتنة الآسنة أمام أبوابها ... وبين كل هذا وذاك مخلوقات صغيرة قد تراكم على أجسادها من الأقذار ، ما جعلها فى غير حاجة الى كساء ... وقد اتخذ الذباب من وجوهها مرقداً .. فألفها وألفته .. ولم تبد منها محاولة لطرده .. من فرط ما تعودته .

ووقفت أمام بيت المعلم حنفى ... البيت الذى ستنقض جدره بعد هنيهة فتخمد تحت أنقاضها الأنفاس وتتهشم الضلوع وتتحطم العظام ، وكنت أسائل نفسى وأنا فى طريقى الى البيت : كيف سينهار البيت ، ؟ ولكننى لم أكد أبصره حتى ساءت نفسى : كيف أمكن له أن يتماسك حتى هذه اللحظة ، وكيف لم ينقض على من فيه منذ بضع سنين خلت ؟

وبدأت أفكر فى كيفية انقاذ المعلم حنفى وآله الكرام ، ووجدت أن المهمة جد شاقة ... فهى ليست من السهولة كسابقتها ... اذ كان من المستحيل أن أمنع جدران البيت من الانهيار .. ولم يبق ، والأمر كذلك ، الا أن أحاول ابعاد المعلم حنفى والست زهرة وأولادهما خارج الدار .. ولم تكن تلك المسألة بالشىء الهين .. وكانت الساعة قد بلغت الثانية الا ثلثا كما رأيتها فى جيب الأسطى زينهم الحلاق ... ولم يبق أمامى الا عشرون دقيقة .

ونظرت الى الدار المجاورة فوجدت عليها لافتة صغيرة قد كتب عليها «السيد عكاشة العرضحالجى» ... وفى نفس اللحظة رأيت عكاشة أفندى نفسه – اذ لا يمكن أن يكون سواه – قد أقبل .. وقد تقوس ظهره

---

(١) محمد السباعى فى كتاب « السر » .

وسقط منظا ره على أرنبة أنفه وأمسك بيده مظلة باهتة وبالأخرى حقيبة مطربة .

وتراءى لخاطرى وقتذاك حل موفق .. فلم يكن علىّ الآن الا أن أحل محل عكاشة أفندى فى جسده ثم أصعد الى داره فأخط على ورقة بيضاء هذه الكلمات «خطر .. البيت آيل للسقوط .. ممنوع الاقتراب» .

ثم أعلق الورقة بعد ذلك على البيت المحتضر .. ولاشك أن هذا سيكون خير انذار لكى يفر المعلم حنفى وزوجته وأولاده قبل أن يطويهم البيت تحت أنقاضه .

وفى لمح البصر انتقلت الى جسد عكاشة .. أو على الأصح الى هيكله .. ووضعت روحه فى الكيس ، ثم أخفيت الكيس والعصا وبقية أجهزة الموت فى حافظته الجلدية .. وطرقت الباب .

وفتحت لى زوجته .. وكان أول ما فاهت به هو أن طلبت ثلاثة مليمات لشراء طرشى .

وبدا على الارتباك .. اذ لم أعرف لأول وهلة أين يضع عكاشة أفندى نقوده ، ولم أدر هل تعود أن يعطيها الثلاثة المليمات بسهولة .. أم أنه يرفض فى بعض الأحيان .. ورأيت ألا أثير معها جدلا قد يعوقنى عن كتابة اللافتة وتعليقها .. فمددت يدى الى الجيب الداخلى الذى تعودت أن أضع فيه النقود فى جاكتتى عندما كنت حيا .. ولكنى وجدت يدى لا تصطدم بشىء .. فقد كان الجيب بلا قرار أى أنه كان على اتصال ببقية أنحاء الجاكتة .. فأخرجت يدى بسرعة ودفعتها فى جيب آخر ، فلم يكن خيرا من السابق .. وظللت أنقل يدى من جيب لآخر وأخرجها بيضاء من غير سوء .

وتصبب العرق من جبينى .. والمرأة تحدجنى بنظرات صارمة .

جزاك الله خيرا يا عكاشة أفندى ! ! . أين تضع نقودك .. لقد كان البحث عن ثلاثة مليمات فى جيوبك الخاوية أشق من البحث عن الماء فى الصحراء القاحلة الجرداء . وأخيرا ولما يئست من العثور على النقود المطلوبة .. وخشيت أن ينهار البيت على المعلم حنفى ، وأنا واقف أمام المرأة أبحث عن ثلاثة مليمات لشراء الطرشى المطلوب . صحت بها متبرما :

– لا ضرورة للطرشى اليوم .

ولم تنبس ببنت شفة ، بل حدجتنى بنظرة ملؤها السخرية والازدراء .. ومدت يدها فى سكون فنزعت الطربوش من فوق رأسى .. ودفعت أصابعها فى جلدته وأخرجت ورقة من فئة الخمسة قروش .. ثم دفعتنى جانبا وقالت هازئة :

– خير لك أن تبحث عن مخبأ آخر غير جلدة الطربوش ...

ولم أجبها بكلمة واحدة .. ولعنت فى سرى عكاشة أفندى .. والظروف السيئة التى دفعتنى الى احتلال جسده .. واندفعت الى احدى الحجرات فأخرجت من الحقيقة ورقة بيضاء كبيرة وأسرعت بكتابة التحذير المطلوب ، ثم هممت بالخروج حتى أضعها على بيت المعلم حنفى .. ولكن المرأة اعترضت طريقى وقالت متسائلة فى دهشة :

– الى أين ؟

ولم يكن لدى من الوقت ما يتسع لمثل هذا التحقيق الذى تنوى عمله .. فقلت لها فى عجلة :

- سأخبرك عندما أعود .

وحاولت أن أزيحها من طريقى ... ولكن الأمر استعصى علىّ فقد كان جسدها أضخم من أن يحاول زحزحته ذراع كذراع عكاشة أفندى الشبيه بعود القصب .. وكانت المرأة من نوع عنيد مشاكس ... فلم اجد بدا من أن أجيبها باختصار عما أنوى فعله حتى اتخلص من لجاجتها فقلت :

- دعينى أمر .. فانى ذاهب الى بيت المعلم حنفى لأنه على وشك الانهيار ؟ !

- ومالك أنت . لعلك قد أصبحت وابور حريقة .. أو عربة اسعاف .. أو مصلحة تنظيم ... أم تظن أنك بجلالة قدرك ستمنعه من الانهيار .. ألم أحذرك مائة مرة ألا تحاول التدخل فيما لا يعنيك .. ألا يكفيك تلك المصائب التى تجلبها لنا بتدخلك فى أمور الناس .. ادخل يا سيدى .. ربنا يهديك .

وتبينت فى وجه المرأة ما جعلنى أجزم أنها قد اصرت على منعى من الخروج .. وأدركت ان من العبث أن أحاول اقناعها .. فقد كانت من نوع لا يقتنع ... ولم يكن هناك من الوقت ما اضيعه فى محاولة ذلك الاقناع .. فصممت على استعمال كل الوسائل للنفاذ الى الخارج .. وكانت المرأة تقف على بسطة السلم .. وكان من المستحيل على أن أجد لى منفذا من خلال جسدها .. ولم يكن من الحكمة أن أحاول المجازفة بالنزول من احدى النوافذ ... اذ كنت أخشى ألا يساعدنى ذلك الجسد الواهن الواهى .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب أوحى الى به ترابزين السلم . لقد

تذكرت أنه لم يكن هناك أحب الى فى طفولتى من الزحلقة على الترابزين .. وأننى كنت بارعا فى هذه اللعبة غاية البراعة ... فقد كان فى استطاعتى أن أنزل من السطح حتى فناء الدار فى ثوان معدودات .. ولا أذكر أننى استعملت السلم فى طفولتى الا عندما كنت أنزل مع كبار العائلة ... وحتى فى هذه الأحوال كنت أتعمد التأخير عنهم .. ثم ألحقهم بوسيلتى الخاصة .

ووجدت أن الزحلقة على الترابزين .. هى خير وسيلة اتخلص بها من المرأة الحمقاء .. حقيقة قد تكون وسيلة صبيانية .. وقد يكون بها ما لايتفق وهيبة عكاشة أفندى ووقاره وكبر سنه .. ولكن المسألة الآن ليست مسألة هيبة ووقار .. ان المسألة مسألة حياة أو موت .

ولم أضيع ثانية واحدة .. فقد أمتطيت الترابزين وأخذت فى الانزلاق عليه بسرعة البرق ... وبعد لحظات كنت أقف فى فناء الدار .. ورأيت المرأة تحملق من أعلى السلم .. وتضرب صدرها بيدها .. فاغرة من الدهشة فاها وهى تصيح :

– يا عيب الشوم .. لقد جن الرجل .

ثم رأيت بجانبى بضعة أطفال يصفقون طربا ويهتفون : « يعيش عكاشة أفندى » .

ولم يكن هناك وقت لتلقى آيات الاستحسان أو عبارات الاستهجان .. فاندفعت الى الخارج مسرعا الى بيت المعلم حنفى .. واقتربت من الباب بعد أن خطفت شاكوشا ومسمارا من الأسطى بيومى العتقى الذى قد جلس بصندوقه وجردله الذى نقع فيه الأحذية والجلود القديمة .

ورفعت الشاكوش وبدأت أثبت الورقة على الباب .. ولكننى لم أكد

أدق أول دقة ... حتى أحسست بيد قوية تقبض على عنقى ... والتفت ورائى فأبصرت بوجه لم أشك لحظة فى أن صاحبه لابد أن يكون . المعلم حنفى نفسه .

لقد أبصرت بوجه قد لف رأسه بلاسة وبدا تحت حاجبيه الكثيفين عينان بهما حول شديد .. فما يكاد يشعر المرء أن الرجل يخاطبه .. ويلى ذلك شارب هو أبرز ما فى الوجه كله .. فلا أظنني مبالغا اذا ما قلت أن الشارب لايمكن أن يكون قد نبت فى الوجه .. بل لابد أن يكون الوجه هو الذى نبت حول الشارب .. لأن الرجل لم يكن سوى شارب وحاجبين .

وسمعت الرجل يصيح فى وجهى غاضبا :

- من أنبأك يا عكاشة النحس ... انى أعرض بيتى للايجار ...

وعلمت أن الرجل لا يعرف القراءة والكتابة ... فحاولت أن أفهمه فى هدوء .. فقلت له :

- ان البيت على وشك الانهيار .. وهذه لافتة لاخلائه وعدم الاقتراب منه حتى لاينهار على رؤوسكم .

ورأيت هذا القول قد زاد من غضب الرجل ، وأحسست به يهزنى هزا عنيفا ويصيح فى حنق :

- ينهار على رأسك أنت ... ورأس أهلك .. ١٥ سنة .. وأنا ساكن فى البيت .. وهو أقوى من الأسمنت المسلح .. فتأتى حضرتك الآن وتقول انه سينهدم على رأسى .. يا ساتر يا رب .. قال الله ولا فالك .

وجذبنى الرجل بعنف ... ودفعنى دفعة كدت أسقط منها على وجهى .

ياللرجل الجاهل الأحمق ... انه سيودى بنفسه وأهله .. ترى كيف أقنعه أن البيت سينهار حقا .. وأنه يجب أن يغادره فى التو واللحظة .

وفى تلك اللحظة بدأ الناس يتكأكأون حولنا .. والمعلم حنفى مستمر فى ضجيجه وصخبه .. وأنا أحاول أن أقسم للناس أن البيت على وشك الانهيار .. فلا أجد منهم الا الهزء والسخرية .. وأخيرا ابصرت بامرأتى .. أعنى امرأة عكاشة أفندى .. تشق الجمع بيديها القويتين وجسدها الهائل .. ثم تصل الىّ .. فتمسك بتلابيبى وتقبض علىّ من زمارة رقبتى .. وتجرنى الى البيت جرا ورأيت نفسى حبيسا فى الدار .. فأدركت أن عكاشة أفندى لن يجدينى بسد ذلك نفعا .. وندمت على ذلك الوقت الذى أضعته فى جسده .. فغادرته مسرعا ... بعد أن أخذت العدة من حافظته .. وتركته يتلقى تأنيب امرأته وتقريعها .

ولم يكن امامى الا خمس دقائق .. وكان علىّ أن أعمل بمنتهى السرعة .. وكان القوم ما زالوا فى تكأكؤهم أمام الدار .. فخطر لى أن أحتل جسد المعلم حنفى نفسه .. ولكنى خشيت أن أكون بذلك قد هيأت لروحه فرصة مفارقة الجسد .. فتأبى العودة اليه بعد ذلك .. وهكذا قد أكون قد قضيت على نفسى بالسجن فى جسد المعلم حنفى ...لا ...لا ... هذا خاطر أحمق ... يجب أن أبعده عن رأسى .

وبحثت بين القوم عمن أستطيع احتلال جسده لأنقذ المعلم حنفى الجاهل .. هو وزوجته .. بعد أن أخفق عكاشة أفندى فى انقاذه ... .

ولم يطل بحثى طويلا ... فقد وجدت ضالتى المنشودة .. فى طقطق ، وهو صبى تبدو عليه الشقاوة والعفرتة .. وسرعان ما هبطت عليه فاحتللت جسده .. وتسللت من بين القوم ودلفت الى بيت المعلم حنفى .. وأسرعت الى سطح البيت .. وكان قد ملىء بالملابس المغسولة

التى قد نشرت لتجف على الحبال .. فأسرعت بخطف بعضها .. وتعمدت أن أحدث ضجيجا .. تحس به امرأة المعلم حنفى ... ثم هبطت بسرعة على السلم .

وأحست المرأة بالضجيج وصعدت الى السطح فاكتشفت نقص الملابس فشق صراخها أجواز الفضاء .. وهبطت على السلم مندفعة بكل قواها وخلفها أولادها .. يتصايحون ويتدافعون .. واندسست بين الجمع بعد أن أخفيت الملابس تحت السلم ... ووقفت أرقب ما سوف يحدث .

يالله .. لقد نجحت نجاحا منقطع النظير .. فقد انطلق ذلك الجمع كله وبينهم المعلم حنفى وامرأته وأولاده يعدون فى الطريق بأقصى قواهم صائحين : حرامى .. حرامى .

وانطلقت معهم .. فاذا بالحى كله يعدو فى شبه مظاهرة وراء اللص الهارب ... وبدأ القوم يتناقلون الخبر .. فاذا بى أسمع ... أن مجرما أثيما قد اعتدى على بيت المعلم حنفى .. فذبح امرأته ... وسرق حليها .. فى رابعة النهار وأنه قد فر هاربا أمام القوم .. وسمعت الراوى يقول انه رآه بنفسه : رجل طويل يلبس عباءة سوداء ، ويمسك السكين بين أسنانه وينطلق هاربا .

ولم أنبس ببنت شفة .. ولم أخبره أن امرأة المعلم حنفى حية ترزق ، وأنها تعدو مع زوجها وأولادها فى وسط المظاهرة .. فقد كان كل همى أن أبعدهم عن البيت ... وقد نجحت فى ذلك أيما نجاح .. فقد أبعد الحى كله عن دورهم .

وفجأة سمع القوم قرقعة وضجة .. وتلفتوا خلفهم فاذا بيت المعلم حنفى قد انهار .. فأضحى أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله .. واندفع المعلم حنفى الى عكاشة أفندى يحتضنه ويستغفره ويؤكد للناس أن فيه شيئا لله .

الفصل السابع

وليمة

لم يكن لدى من الوقت ما أضيعه في سيدى زينهم بعد انهيار البيت ، وبعد أن أنقذت المعلم حنفى وآله الكرام من الموت تحت أنقاضه .. فقد كان علىّ أن أواصل مهمتى فى انقاذ بقية الأرواح .. فسرعان ما غادرت جسد الصبى طقطق .. وألقيت نظرة على الكشف لأرى الروح التالية .. فوجدت صاحبها .. هو جابر بك كيراشو ... وكان المكان فى باب الخلق .. والموعد فى الثانية والنصف عقب وليمة غداء .

ورغم أننى لم أكن فى عجلة من أمرى .. اذا كان أمامى من الزمن ما يقرب من نصف ساعة .. فقد فضلت أن أذهب دون تلكؤ الى مقر الروح التالية ... لأننىتوقعت أن تكون عملية انقاذها أشق كثيرا من سابقتها .. فما أظن محاولة منع السيد كيراشو من أن يميت نفسه بالتخمة عقب افراط شديد فى وليمة غداء بالمسألة الهينة .. وما كنت أظننى ساستطيع بسهولة أن أمنعه من التهام ما يحلو له من مائدة الطعام مما سيفضى به حتما الى مصرعه . .

ولم تمض بضع ثوان حتى كنت أحلق فوق البيت المطلوب .. ونفذت من احدى النوافذ الى حجرة قد اكتظت بالمدعوين من الأصدقاء والخلان الذين دعاهم كيراشو بك للاحتفال به بمناسبة الانعام عليه برتبة البكوية .

وفحصت المدعوين فلم أجد بينهم صاحب الدعوة .. ففضلت أن أنتظره بينهم ، فلقد كان الجمع خليطا عجيبا يستحقون أن يقضى المرء معهم بعض الوقت .. اذ كانوا حقا مبعث تسلية ومورد فكاهة .. ولم أستطع أن أدرك البتة سر تلك الصلة .. التي ربطتهم بعضهم البعض .. فما كان هناك شبه أو تقارب بين أحدهم والآخر .. اللهم الا ميلهم للهزل وحبهم للمجون .. حتى استطعت أن أجزم فى النهاية بأنهم جميعا أولاد حظ وأبناء نكتة .

واستطعت أن أفهم من حديثهم أن السيد جابر يمتلك أشهر مطاعم الكفتة والكباب بالقاهرة .. وأن الرجل عصامى جمع ثروته بعرق جبينه وبمثابرته واجتهاده واتقانه لصنعته .

وعلمت كذلك من سياق الحديث .. أن الرجل بدأ حياته بائعا متجولا للكرشة والسجق والطحال .. وقد يكون هذا هو سر تسميته بجابر بك كيراشو .. وأنه تدرج بعد ذلك فاقتنى عربة احتل بها مكانا مختارا على ناصية حارة السيدة .. وقد اشتهر وقتذاك بشواء الكفتة .

ورأيت أحد الحاضرين يهز رأسه ويقول كأنما قد أشجته الذكرى :

– رحم الله ذلك الزمن .. لقد كنت أقف وقتذاك فى شارع مراسينا فيصل الى أنفى عبير الشواء من حارة السيدة .. فكأنه والله نسيم الصبا .

وعلمت أيضا أن الرجل قد فتح الله عليه بعد ذلك فاستبدل بعربته مسمطا متواضعا فى شارع السد البرانى .. وقد ذاع صيته من ذلك الوقت وطبقت شهرته الآفاق بفضل ما لديه من أجود أنواع الكوارع .. وتدرج به الأمر فأنشأ عدة مطاعم ، وأخذت ثروته فى الازدياد منذ ذلك الحين حتى أضحى من كبار الأثرياء .

ثم تبرع بعد ذلك بمبلغ لايستهان به لمشروع الجوارب .. وهو مشروع فكر فيه بعض من « ناضجى العقول » ... وما أكثرهم فى هذا

البلد التعس .. فقد وجدوا أن مشروع الحفاء .. أو على الأصح مشروع الجزم .. قد نفع وأفاد .. وأن أفراد الشعب الذين يتضورون جوعا .. قد اكتمل هندامهم بلبس الأحذية .. ولم يبق عليهم الا ارتداء الجوارب .. ففكروا فى مشروع الجوارب .. وجمع التبرعات والاكتتابات .. سمن يبغون وجه الألقاب ، لا وجه الله .. وهكذا سنحت الفرصة للسيد كيراشو .. فأقبل على اغتنامها ، وبين عشية وضحاها .. وجد نفسه كيراشو بك ...

وشرد ذهنى وتذكرت مصيبة هذا البلد بمشاريعه المغرضة المرتجلة .. فما من عمل أقيم الا كان المقصود به غير حقيقته ... وما من مشروع الا كان أساسه الخداع والتهريج .

وطال بى الجلوس بين القوم .. والسيد كيراشو .. - ذو التاريخ الشهى الحافل بالكباب والكفتة والكوارع - لم يظهر فى الأفق بعد .. وخشيت أن ظللت على انتظارى بين الجمع .. أن أفاجأ به على المائدة مرة واحدة .. فلا أستطيع أن أتدبر أمرى ... أو أمنعه من ارتكاب جريمة الانتحار التى هو مقدم عليها ... فلم أر خيرا من أن أترك الحجرة لأبحث عنه فى أنحاء الدار .

وبعد جولة سريعة فى الحجرات .. عثرت عليه أخيرا .. وقد انهمك انهماكا تاما فى المطبخ ، واستغرق بكليته فى مراقبة أسياخ الكفتة ... وتقليبها فوق جمرات النار .

وهنا وجدتنى أنعم البصر مليا فى صاحب العزة .. فقد كان فى الواقع يستحق انعام البصر .. ويستدعى التأمل والتمعن .

وكما وصفت المعلم حنفى من قبل فقلت عنه انه ليس أكثر من حواجب وشوارب ، أستطيع أن أقول دون أن أخشى الزلل : أن صاحبى الجديد لم يكن أكثر من بطون وبطون .. فقد أبصرت به . وقد وقف

أمام الموقد ملاصقا له ، وبالرغم من ذلك فقد كان بينهما مسافة تبلغ المتر قد شغلت بشىء – أشك كثيرا فى أنه بطن واحد – وقد ارتدى القفطان ولف وسطه – أو على الأصح محيطه – بحزام من الكشمير .. وكان يمد ذراعه بمروحة من الريش ، يحركها بيده يمنة ويسرة ليستزيد من نيران الموقد .. وكانت المروحة لاتكاد تصل الى منتصف بطنه فلا يصل من ريحها الى الموقد الا نسمة خفيفة .

والتفقت حول الرجل ... وتأملت فى وجهه .. فرأيت فكيه فى حركة دائبة وعمل مستمر .. لايكفان لحظة عن المضغ والبلع .. حتى خيل اليه أنه يتمتع بخاصة الاجترار .. ولم تكن تفاصيل وجهه بالشىء الجلى الواضح .. اذ لم يكن له أنف محدود أو عينان مميزتان .. بل كانت كل تقاطيعه ممزوجة بعضها ببعض ، حتى لكأن وجهه طبق من البطاطس البيريه أو قصعة من العصيدة .. وكان كل مااستطعت تمييزه هو خطان يدلان على أن هنا توجد عينان .. وفتحتان يندفع منهما واليهما هواء تدلان على أنهما طاقتا أنف انسان يتنفس .

ورأيت الرجل يمد يده بجواره ثم يدفع شيئا فى فمه ليتابع المضغ .. فلم أشك حينذاك أن عملية الانتحار بالأكل قد بدأت منذ مدة غير يسيرة .. وأنه لم يكن من الحكمة قط أن أقضى ذلك الوقت الذى قضيته بين المدعوين .. تاركا الضحية تزدرد وتلتهم .. دون أن أحاول أن أبدأ عملى فى انقاذها من شر نفسها .

ولم تمض لحظات حتى رأيت الرجل يغادر المطبخ وأبصرت بالمدعوين يغادرون حجرتهم ليتخذوا مقاعدهم حول المائدة التى احتل فيها السيد كيراشو مكان الصدارة .

وعلت فى الجو ضحكات .. وتطايرت نكات .. وبدأت عيون القوم تفحص الأصناف الشهية التى قد حفلت بها المائدة .. وقد بدت حائرة

غير مستقرة .. وشمر قائد المائدة عن ساعد الجد ... ورفع أكمام قفطانه الواسعة حتى المرفقين .. وبدا عليه كأنه يوشك أن يخوض غمار معركة حامية الوطيس .

وكنت أعلم فى نفسى أن الوليمة فعلا لا تعدو عن أن تكون معركة .. وانى لو لم أسرع فى التدخل لكان الرجل أول ضحاياها .

وبدأت المعمعة بأن مد الرجل يده الى فخذ ضأن لامع متورد قد علا قاربا من الأرز المخلوط بالزبيب والصنوبر .. وهنا أحسست أن المعركة ستكون من النوع الخاطف ، وانى لابد أن أسرع فى الهجوم المضاد .. وأن أكون سريعا فى عملى والا هزمنى الرجل فصرع نفسه .

وهبطت فى التو الى أول جسد يجلس بجواره ... ولم يكد يستقر بى المقام حتى مددت يدى فخطفت فخذ الضأن من يد الرجل .. وأسرعت بوضعه بين فكى قائلا : « انى احب الضأن » .

ونظر الى السيد كيراشو بدهشة وأصر على أسنانه فقد أذهله أن يرتكب أحد ضيوفه مثل هذا العمل الشائن . ورأيته يهم باستعادة الفخذ ، ولكنه تذكر أن واجب الضيافة يحتم عليه أن يكون كريما مع ضيوفه .. فكتم غيظه فى صدره .. وافتر ثغرة عن ابتسامة زائفة مصطنعة ليس بها من الابتسام شىء سوى أنها أظهرت أنيابه وأسنانه .. وأجبته أنا بابتسامة مثلها .. وعاودت الاطباق بأسنانى على قطعة اللحم .

وهنا يجب على أن أعترف أنى لم أكن قط حكيما عندما حاولت أن اتبع ذلك المسلك الذى اتبعته فى انقاذ الرجل .. لأنى ما كدت أحل فى الجسد وأدفع أسنانى فى قطعة اللحم .. حتى شعرت بارادتى تضعف

وعاودتنى عادتى القديمة وهى النهم والشراهة التى كانت تلازمنى فى حياتى كلما جلست الى مائدة طعام فى وليمة من الولائم .

أجل ، لقد عدت الى سابق عهدى عندما كانت جدتى تتهمنى بأننى « آكل فى آخر زادى » وعندما كنت أتبع قول الرسول : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع » .. ولكن بطريقة أقسم أنها لم تكن تخطر قط ببال الرسول عندما قال حديثه .. لقد كنت لا آكل حتى أجوع .. وانا سريع الجوع جدا .. بل اننى فى الواقع دائم الجوع .. لأننى – كالشطرة الثانية من الحديث – اذا أكلت لا أشبع .. ليس لأننى أكف عن الطعام قبل أن أشبع .. بل لأننى لاأشبع مهما أكلت .

وانى لأذكر كيف كنا – أنا وأخ لى وابن عم – خطرا على أى دار ندعى للطعام فيها .. فقد كنا نصيب أهله بفجيعة ووجيعة وخاصة عندما تنقلب المسألة بيننا الى منافسة ومسابقة .. فالويل عندئذ لأصحاب الدار .

ولم يكن هناك ما يستطيع أن يقيم أودى ويصلب عودى ويجعلنى أستطيع الصبر حتى الغداء الا أكلة فول مدمس أتناولها على الريق عند الاستيقاظ .. فبهذه الأكلة يمكننى أن أؤدى أعمالى بعد ذلك وأن أروح وأجىء دون أن أحس بألم الجوع .. الا قبيل الساعة الثانية عندما يحين وقت الغداء .

أجل .. اننى ما كنت أعتبر الفطور فطورا .. الا اذا كان فولا . واذكر كيف ذهبت لزيارة جدتى وأنا طفل فى السابعة ، فبت عندها ليلة الجمعة واستيقظت فى الصباح فأجلستنى الى المائدة ..ورصت عليها – محاولة المبالغة فى اكرامى ، فقد كانت ، رحمة الله عليها ، شديدة الحب لى – أقول رصت عليها حوالى عشرة أصناف من مختلف أنواع الجبن والزيتون والزبد والعسل والمربى .. وجلست ترقبنى وأنا آكل .. حتى

أتيت عليها جميعا .. فسألتنى أن أقوم لأغسل يدى .. ولكنى نظرت اليها ببساطة وقلت متسائلا :

– أين الفطار ؟ !

– الفطار ؟ ؟ ! ! وما الذى التهمته فى جوفك الآن ؟

ولم أعن بالاجابة عليها ، بل قلت فى اصرار :

– أين الفول ؟

ونظرت الى جدتى وهزت رأسها آسفة .. ولكنى لم أهتم كثيرا بنظراتها ولا بأسفها ، بل أصررت ألا أترك المائدة الا بعد تناول طبق الفول .. وقد كان .

وأذكر كذلك كيف كنت وزميلا نتنافس على بطولة الأكل .. وكيف كنا نحن الاثنان نستعد لدخول مباراة للملاكمة .. وكان الممرن يحاول جهده أن يجعلنا نتبع رجيما خاصا فى الطعام حتى لايزيد وزننا ، وكان يصر على ألا نتناول طعام العشاء . وكنا نذهب أمامه فعلا لكى ننام .. ولكن لا يكاد الليل ينتصف حتى نقفز من فراشنا فنهجم على المطبخ ونأتى على كل ما به .

وقد حدث مرة أننى ذهبت للنوم قبل صاحبى .. وأخذت أتقلب على الفراش برهة دون أن يغمض لى جفن .. وبعد لحظات رأيت صاحبى يتسلل الى الحجرة ويتجه الى فراشة فى سكون ، دون أن يحاول اضاءة الحجرة .. فدهشت فى نفسى اذ لم يتعود أحدنا أن يحترم نوم الآخر .. بل لا يكاد يدخل أحدنا يدخل الحجرة ويجد الآخر راقد ، حتى يتفنن فى احداث الضجيج لاقلاق راحة زميله .. وانى لاذكر كيف دخلت عليه ذات مرة فوجدته يغط فى نومه ففتحت الراديو بأعلى صوته ، وكانت

تذاع وقتئذ أسطوانة « يا بختها يا بختها ضرتها طقت منها » وزعمت حينذاك أننى لا أستطيع النوم الا على نغمات الشعر والموسيقى ! !

أقول اننى دهشت لذلك الهدوء الذى أقبل به على فراشه .. وقلت فى نفسى ان فى الأمر سرا .. ورأيته قد وضع لفافة على الفراش ثم خرج من الحجرة .. وقفزت من فراشى وفحصت اللفافة فاذا بها رغيف ملىء بالكباب .. فأسرعت بوضعه تحت مخدتى ، وعاودت النوم فى سكون .

وعاد صاحبى ومعه كوب من الماء ، وأقبل على فراشه يتحسسه فلم يجد اللفافة ، وبحث هنا وهناك حتى أعياه البحث .. وأخيرا أضاء النور .. ثم نظر الى وقال فى صوت بائس ملىء بالألم :

– لا داعى لادعائك النوم .. أعطنى ولو شقة .. على الأقل .

وكان ممرن الملاكمة يدهشه أننا رغم المجهود الذى نبذله فى التمرين ، ورغم ذلك الرجيم الذى نسير عليه .. لا يزال وزننا فى ازدياد .. وأخيرا قرب ميعاد المباراة .. فأصر على أن نعدو مسافة طويلة حتى ينقص وزننا ، الى القدر المطلوب .. وبدأنا العدو ..والممرن وراءنا من كوبرى القبة حتى الجبل الأحمر ، ثم عدنا الى العباسية ، وهناك وقفنا نستريح برهة .. وغفل عنا الممرن بضع لحظات .. فوجدنا أحد باعة اليوسفى فوقفنا نتسلى أمامه .. فأكل كل منا ثلاثين يوسفية فى غفلة من الممرن .

وعندما عدنا وحاول الممرن أن يزننا بعد ذلك .. كاد يصعق عندما وجد أن وزننا قد زاد .

وأذكر مرة أخرى أننا ذهبنا للراحة عقب الغداء وأستلقى صاحبى

على الفراش .. وتمددت أنا على أريكة أتصفح احدى المجلات ... وغفلت لحظة .. ثم فتحت عيناى فلم أجد صاحبى فى فراشه .. فأصابتنى دهشة اذ كان من نوع نؤوم مكسال لايكاد رأسه يلامس الوسادة حتى يروح فى سبات عميق .

ونهضت للبحث عنه فقد كنت دائما أوجس منه خيفة عندما أراه يشذ عن عادة له .. وبحثت عنه فى بقية الحجرات فلم أجده .. فزاد خوفى اذ كنت أعرف فيه السير أثناء نومه ، فخشيت أن يكون قد حمله سيره الى احدى الشرفات أو النوافذ فألقى بنفسه منها .. وأسرعت أطل برأسى من النافذة على حديقة الدار وبنفسى لوعة من رؤية صاحبى أشلاء مهشمة وأعضاء محطمة .

وصدمتنى رؤيته .. لا طريح الأرض غريقا فى دمائه ولا سائرا فى أثناء نومه .. ولا حتى مضطجعا فى ركن ظليل من الحديقة يستمتع بنسمة هادئة عليلة .. كلا لم أره فى أى وضع من الأوضاع التى يحتمل أن يرى بها أى مخلوق من مخلوقات الله المتمتعين بشىء من قواهم العقلية .. بل رأيته يعدو فى الحديقة بأقصى سرعة ثم يثبت بعنف الى أعلى ويقفز الى الأشجار ويهبط منها كأنه قرد فى حديقة حيوانات .. ولم أشك عندئذ فى أن صاحبى قد فقد عقله وأنه قد أصابه مس من جنون .. وخطر لى أنه قد يكون فى ذلك العدو والقفز الجنونى ما زال مستغرقا فى نومه .. وأنه لايحس بما يفعل .. وخشيت أن يقع من فوق شجرة فتدق عنقه دون أن يدرى .. فصحت به من النافذة لأوقظه .

ورفع الى بصره متسائلا عما أريد وهو ما زال منهمكا فى أعماله العنيفة ... كأنه يخشى أن تضيع منه بضع دقائق فى غير عدو ولا وثب .. وصحت به :

– أجننت ؟ ! ! فيم هذا الجرى والقفز ، والجن قد أوت الى مضاجعها فى هذا الهجير ؟

– خير لك أن تنزل فتفعل كما أفعل .. والا ندمت ولا ساعة مندم .

– أنا أنزل فأفعل كما تفعل ؟ ! يا للجنون .. أأترك الفراش .. وأنزل للعدو والوثب فى هذه الشمس المحرقة .. دون أى سبب أو داع .

وأجابنى ساخرا وهو لا يكف عن حركاته العنيفة :

– دون أى سبب أو داع ؟ ! لعلك قد نسيت حفلة الشاى التى دعينا الى الذهاب اليها فى الساعة الخامسة .

وهززت رأسى متسائلا :

– وما دخل ذلك فى حفلة الشاى ؟

– يا حضرة الأحمق .. هذه عملية هضم .. أتريد أن تذهب الى حفلة الشاى وما زال طعام الغداء مكدسا فى جوفنا فننظر الى الفطائر والحلوى ملومين محسورين .

يا للخبيث ! ! اذا فهذا هو السر ! !

لم أرد أن أتقهقر أمامه بمثل هذه السرعة فأعترف له بأننى أحمق وأنه الذكى الفطن .. فنظرت اليه مستسخفا اياه ، وقلت له بلهجة رثاء :

– مسكين .. ربنا يشفيك ! !

ودخلت الحجرة متصنعا العقل والرزانة .. وتمددت على الأريكة

وأمسكت بالمجلة أحاول القراءة .. ولكن ذهني كان أبعد ما يكون عن الرغبة فى القراءة .. فقد كان منهمكا فى التفكير فى صاحبى الذى لم يكف بعد عن عدوه ووثبه .. أجل .. ما من شك فى أنه أكثر حكمة منى وأصوب رأيا .. فهذا الوثب والعدو سيؤدى به فى نهاية الأمر الى أن يهضم تماما كل ما فى جوفه ، فيذهب الى الشاى وهو ماضى العزم مشحوذ الهمة بمعدة خاوية ترحب بكل ما يلقى اليها من جاتوه ، وبتى فور .

وقارنت بينه وبينى ، فرأيتنى فى معمعة الشاى أشبه بجندى جريح فى معمعة قتال ، وتذكرت فى ذلك الوقت أن أحد ملوك فرنسا كان نهما أكولا ، وأنه كان شديد الولوع بالطعام الى حد اعتباره متعته الأولى فى الحياة .. وكان أكثر ما يحزنه أن الله لم يخلق له الا معدة واحدة محدودة الحجم .. وأنه لايستطيع أن يدفع فيها الا كمية محدودة من الطعام فى وجبات محدودة ، وأوقات معينة ... ولذلك فهو لايستطيع مباشرة متعة الأكل الا على نطاق ضيق كبقية خلق الله الذين ليسوا ملوكا .

واستمر الملك متبرما من عدم قدرته على الاستمتاع بعملية الأكل كلما شاء ووقتما أراد .. حتى اهتدى الى طريقة عجيبة .. وهى أن يصنع له مقيأة .. فلا يكاد يملأ بطنه بأشهى الطعام وأطيب الشراب ، ويستمتع بأقصى ما تستطيع معدته تحمله من أكداس الغذاء .. حتى يذهب الى المقيأة فيفرغ فيها ما حملته معدته .. ثم يستريح برهة .. ليعاود الاستمتاع بعملية الملء مرة أخرى .. وهكذا دواليك .

ولم يطل بى التفكير .. حتى قفزت من مكانى أعدو الى الحديقة .. فأقفز وأتواثب .. كما كان يفعل صاحبى الذى اتهمته منذ لحظات بالجنون فما كنت خيرا منه .. أو خيرا من ملك فرنسا .

هذه أقاصيص لم يكن من سردها بد ، حتى أعلل ذلك الضعف الذى أصابنى عندما حللت فى الجسد .. ودفعت بأسنانى فى قطعة اللحم .. فقد رأيتنى أعود الى قديم ولوعى بالموائد والولائم ، ورأيتنى أسبح ببصرى بين الأطباق الحافلة بالأطعمة الشهية .. وأمد يدى فأختطف طبقا من سلاطة الطحينة التى كنت مشغوفا بها فى حياتى .

وهكذا رأيت الطعام يكاد ينسينى واجبى الأول ، وهو انقاذ الرجل من الانتحار .. اذ مد يده الى صينية رقاق فطواها طيتين وقذف بها فى حلقه دون مضغ حتى لقد خيل الى أنى أكاد أسمع صوت ارتطامها بقرار معدته .

ورأيت الرجل قد بدأت أنفاسه تتلاحق ... وجفونه تتثاقل ، وأطرافه تتراخى ، فأصابتنى رجفة .. لعنة الله على .. لقد كدت أترك الرجل يقتل نفسه .

وهنا لم يكن بد من العمل السريع فتركت الجسد الذى حللت فيه .. وأخذت أفكر بسرعة .. لقد كان من العبث أن أحاول الدخول فى أى جسد آخر .. فما من شك أنى سأندفع مرة أخرى الى التهام الطعام وأنسى الرجل .. وفى هذه المرة لا شك أنه سيلقى حتفه .

ونظرت حولى فى حيرة ، فوجدت فى أسفل المائدة قطا كان الرجل يدلله ويلقى اليه من آن لآخر ببعض الفتات فهبطت اليه فى سرعة البرق وحللت فى جسده .

وفزع القط فى بادىء الأمر .. ولكنى أنبأته أن الاحتلال لن يكون الا لبضع دقائق .. ولم تكد روحى تستقر فى الجسد الصغير حتى أسرعت الى طرف المائدة فأمسكت بفمى حافة المفرش المدلى على الأرض وجذبته جذبة عنيفة فهوى بما فيه من صحاف وأكواب وأصاب

رشاش الطعام ثياب المدعوين .. فقفزوا من أماكنهم حانقين صاخبين .

ونظرت الى كيراشو بك فرأيته قد تمدد فى مقعده لا يستطيع الحركة .. وكانت الضجة قد أعادت اليه بعض صوابه .. ولكنه ما زال فى نصف غيبوبة .. فقفزت اليه ، وتوسدت ساقه .. وخطر لى أن أجرب معه طريقة الزغزغة فلعلها تفيد فى نعنشته بعض الشيء .. فبدأت أعبث بأظافرى عبثا خفيفا فوق بطنه الكروية .. فسمعت منه ضحكة خافتة واهتز جسده هزة خفيفة .. ولكنه عاد الى السكون مرة أخرى .. فعدت الى الزغزغة ، فقد كان الرجل شديد الغيرة من بطنه .. وواصل الرجل الضحك ، واستمر جسده فى الاهتزاز فشجعنى ذلك على الاستمرار .. وبدأ الرجل يقهقه ويتمايل على مقعده ويحاول أن يمد يده ليبعدنى عن بطنه .. ولكنه لم يستطع أن يصل الى ... وزادت قهقهة الرجل .. وبدأ القوم يشاركونه الضحك والقهقهة . وواصلت أنا عملية الزغزغة بجد واجتهاد ، حتى أحسست بجسد الرجل يكاد ينفجر .. فتركته خشية أن أكون قد أنقذته من الموت شبعا .. لكى أميته من الضحك .

وتركت الجسد الصغير .. وانطلقت لأنقذ الروح التالية .

● ● ●

الفصل الثامن

محمود افندى الفنط

نحن الآن فى « جنينة قاميش » أو « ناميش » باللغة الدارجة ... وليسمح لى القارىء أن أتريث عندها لحظات وليتحمل منى ذلك الملل الذى قد أصيبه به اذا ما أطلت الحديث عن « جنينة قاميش » .. فان لها على حقا .. فقد كانت لى مرتع الصبا .. ومراح الطفولة اللاهية العابثة .. فلا أظن القارىء يحرمنى من أن أحبها بضع كلمات ... أو أن أحييها بقول الشاعر « جادك الغيث إذا الغيث همى » .. فهى بقعة من الأرض عزيزة على نفسى .. حبيبة الى قلبى .. وقد ينسى المرء كل مكان الا مرتع طفولته .. وموطن حبه .. أجل :

قد يهون العمر الا ساعة   وتهون الأرض الا موضعا

ولاح لى ميدان السيدة وقد اختلط فيه الحابل بالنابل واختلطت فيه شتى الأصوات المختلفة المتناقضة .. رنين طاسات العرقسوس برنين جرس الترام يقرعه السائق من حين لآخر .. وأصوات باعة مشابك الغسيل وابر وابور الجاز بأصوات باعة الجرائد يعرضون الأهرام بسبعة مليمات فقط .

ولاحت لى مدرسة محمد على فى أول شارع مراسينا ، فساقنى

الحنين لأن أجول فيها جولة .. ونفذت الى الداخل ووقع بصرى على الجرس الكبير ... فتذكرت عم عفيفى قارع الجرس .. بمشيته البطيئة المتثاقلة .. وعصاه التى يتوكأ عليها ، والتى قد وضع فى أسفلها مسمارا يلتقط به الأوراق الملقاة فى طريقة دون أن يكلف نفسه أية مشقة أو عناء ، فكأنه عربة كنس .

وأبصرت بملعب الكرة المثلث ... وتذكرت أبطال محمد على فى لعبة الكرة .. أبو السعود كاسب ، وبألز ، والكسار ، وسعيد خليل ، وهذا الأخير أبصرته قبل موتى بضع مرات ممثلا على الشاشة البيضاء ، وفى الفرقة القومية .

ثم تذكرت أيام الاضراب عندما كنا نقف فى الفناء ونهتف : « عايزين نخرج » والباب أمامنا مفتوح على مصراعيه ، ولا أحد هنالك يمنعنا من الخروج .. ومع ذلك لا نخرج .. مكتفين باعلان رغبتنا فى الخروج حتى يدق الجرس فنساق الى الفصول .

ونفذت من الباب الخلفى الى شارع سلامه .. فتذكرت بائع السميط والساندوتش بوجهه الأسمر الضاحك ، وصوته الرنان يصيح من آن لآخر : « هنا المهم يا بيه » وتذكرت بائع البسبوسة وطرفاته المنتظمة بسكينه فوق الصينية المستديرة ، وبائع الصحف الذى لايتحرك من مكانه ولا يقول الا : « سياسة ، وأهرام .. سياسة » .

وهبطت أخيرا الى جنينة قاميش .. فاذا بى أرى الشوارع قد ضاقت بعد أن كنت أراها متسعة رحبة الأرجاء ... واذا بذلك الميدان الذى كنا نتخذه ميدانا للعب الكرة .. والذى كان يخيل الى وقتئذ أنه أوسع من ميدان عابدين ، قد بدا فى ضيق عجيب .

وأبصرت بدارنا القديمة ... وبدار اخرى على قيد خطوات منها .. فأحسست بالفؤاد قد هفا .. والقلب قد شدا وترنم .. « وما حب الديار شغلن قلبى » .. ولكن حب من كان يسكنها فى أيام خلت ، وزمن مضى وغبر .

تذكرت « ملكة » التى كانت أول من أحسست نحوها بحب ... والتى لم تحس هى لحظة .. لا بحبى ، ولا بوجودى ... والتى كانت عندى فى لحظة من لحظات العمر كل شىء ... وما زدت أنا عندها قط عن لا شىء .. لقد كنت لديها كالهواء أو كالفراغ .. ثم ماتت وقتذاك .. وهى صبية نضرة لينة .. ولم أحزن على موتها كما يجب أن يحزن عاشق على موت حبيبته ... لأنها كانت عندى بمثابة شىء رمزى ... فما كان موتها ليحرمنى من شىء كنت أتمتع به فى حياتها ... على التقيض .. لقد كنت أشعر أنى أستطيع أن أحبها وهى ميتة دون أن يشاركنى فيها أحد من الأحياء .. وكنت أريد أن أضرب لها - أو لروحها - مثلا .. اننى على أنكارها اياى واهمالها وجودى أحفظ للعهد وأبقى على الحب من غيرى ممن كانت تمنحهم ما تبخل به على ، وتهبهم ما تحرمنى منه .

ولكن ما لنا ولتلك الذكريات الآن .. لكأننى سأخرج عن الموضوع ، لأكتب حياة قلبى ، كما كتب « الصاوى » حياة قلبه .. عجبا لك أيها القلب تأبى الا أن تحشر نفسك فى كل مقام .. مهلا أيها القلب ... فما المقام مقامك ، ولا المجال مجالك .. ألا تستطيع الصبر ؟ من يدرى .. فقد تسنح لك الفرصة ، لتقص حياتك كاملة .. فى كتاب خاص بك .. تسميه مثلا : « مدمن حب » .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ولم تزل أمامى فسحة من الوقت ، فقد

كان موعد قبض الروح التالية هو الساعة الرابعة .. فقلت لنفسى : أجول جولة بين ربوع الماضى حتى يحين الموعد .. ودلفت فى احدى الحارات فرأيت صبية قد تكأكؤا حول كرة يحاولون نفخها بمنفاخ صغير .. فتذكرت فى التو « تيم الأسد المرعب بجنينة ناميش » وقلت لنفسى : ان الانسان لايتغير فقد خيل الى أنى أرى نفس المنظر الذى كنت أراه منذ عشرات السنين .. حتى لقد كدت ابصر نفسى بين هؤلاء الصبية .. من فرط ما بيننا وبينهم من شبه .. ووقفت أرقبهم حتى انتهوا من نفخ الكرة .. ثم بدأوا يقسمون أنفسهم الى فريقين ، وكان البعض منهم يرتدون الأحذية والبعض لا يرتدى أكثر من القباقيب والشباشب .. ورأيت مشكلة قد قامت بينهم – تماما كتلك المشكلة التى كانت تقوم بيننا عندما كنا فى مثل سنهم – فقد كان حفاة الأقدام يخشون على أقدامهم من بطش ذوى الأحذية ... وبعد أن تشاور الصبية فيما بينهم لحظة .. رأيت ذوى الأحذية قد جلسوا على الأرض وخلعوا نعالهم ووضعوها على الرصيف وأخذوا كلهم فى اللعب حفاة .. وقلت لنفسى : « لتحيا الديمقراطية » ، وخشيت أن أقول : « الشيوعية » حتى لايقبض على .

ووقفت اتسلى بمشاهدة اللعب .. فتذكرت حينذاك حادثة ظريفة وقعت لنا ذات مرة فى نفس الحارة .. وقد انهمكنا فى اللعب تماما كهؤلاء الصبية .

كنا قد بدأنا اللعب .. وكان يوجد فى نهاية الحارة صبى بقال ، ملحوس ، يدعى أحمد البطل ... وكان من أهم صفات أحمد البطل هذا .. أنه من غواة لعب الكرة .. وكثيرا ما كان يترك الحانوت ليقف حارس مرمى .. وفى ذلك اليوم مر بنا أحمد البطل .. وعلى كتفه قفص من العنب يحمله الى الحانوت .. واستهواه اللعب .. فوقف يشاهده .. ويخيل الى أن الماتش كان حاميا .. لأن صاحبنا اشتد انسجامه حتى

انتهى الأمر به بعد لحظات الى أن يترك الرصيف وينزل بين اللاعبين وقد حمل قفص العنب ليعلن أنه يريد اللعب .

وأنبأناه بالحسنى أنه لا محل له لأن الفريقين كاملان .. ولكنه أصر على اللعب .. ولما كنا نجد فيه مادة للتسلية والعبث .. فقد طلبنا منه أن يحضر زميلا له حتى نستطيع أن نضع كلا منهما فى فريق .

ويبدو أنه لم يكن هناك أسهل عليه من ايجاد هذا الزميل .. لأنه سرعان ما تطوع بائع بطاطة كان يقف على مقربة منا لأن يكون هو الزميل المطلوب .

ووقف كل منهما فى مرمى أحد الفريقين .. ووضع أحمد البطل قفص العنب على سور بجوار مرماه .. ثم انهمك فى اللعب .

أجل ... لقد كان انهماكه في اللعب شديدا ... حتى انه لم يشعر قط بنا ونحن نتناوب التسلل لكى يأخذ كل منا نصيبه من قفص العنب .. وأخيرا انتهى اللعب .. وانتهى العنب .

وذهب صاحبنا ليحمل قفصه .. فوجده فارغا، ووقفنا نحن نتساءل وقد ملأتنا الدهشة : أين ذهب العنب .. وأين اللص ؟ .

وبكى البطل وانتحب .. فقد كان لا يدرى كيف يعود الى صاحب الحانوت بالقفص الفارغ .. ولانت قلوبنا له .. فبدأنا الاكتتاب حتى جمعنا له ثمن العنب المسروق : ومن ذلك اليوم وهو لايفكر قط في لعب الكرة .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف فتركت الصبية وانطلقت الى الروح التالية .. لصاحبها : محمود أفندى الفنط .

وصلت الى بيته .. ونفذت الى شقته المتواضعة خلف مطحن

الرمالى .. فرأيت صاحبنا فى جلبابه ، وقد عصب رأسه بفوطة ، بعد أن أغرقها بالفازلين استعدادا للخروج .

وتبين لى أن محمود افندى يعيش مع أبويه « أبو محمود » و « أم محمود » .. وأنه يعتبر فى الدار بمثابة رب الدار .. وأنه أعزب لم يتزوج – وربما كان هذا هو المظهر الوحيد الذى يبدو عليه من مظاهر العقل – وكان أهم ما يشغل بال محمود أفندى فى هذه الحياة .. امران : شاربه ، وورق اليانصيب .. وقد يبديه لنا هذا القول فى صورة الرجل التافه .. أو الشاذ .. ولكننا لو نظرنا الى هذين الشيئين اللذين يشغلان باله .. على انهما عنده وسيلة لغاية .. لما رأيناه أكثر تفاهة .. أو أكثر شذوذا من الكثيرين منا .

كانت غاية الرجل فى الحياة شيئين : النساء .. والمال .. ولا نظن أحدا منا يستطيع ألا يعترف – على الأقل فيما بينه وبين نفسه – أن ذلك هو غايته .. أو من أهم غاياته .. وكان الرجل من جانبه يعتبر أن وسيلته لادراك هذه الغاية .. شيئان ، شاربه ، وورق اليانصيب .. أما الشارب فلاقتناص النساء ، وأما اليناصيب فلادراك المال .. وهو فى عدوه وراء غايته .. صبور ملح .. لا يكل ولا يمل .. ولا يعرف معنى للضيق أو التبرم .. فهو يؤمن تماما بحكمة القول : « على المرء أن يسعى » وليس عليه ادراك النجاح » .. وهو يرى – تبعا لذلك – أن يداوم السعى ... وقد اختار لذلك السعى أبسط الوسائل وأهون الطرق .. شاربه واليانصيب .

وعندما وقع بصرى عليه فى تلك اللحظة .. كان قد بدأ عملية الاستعداد للخروج .. وهى عملية لو تعلمون شاقة عسيرة .

وبدأ محمود افندى العملية بارتداء الشراب .. وكانت صعوبة ارتداء

الشراب كائنة فى كيفية اخفاء تلك النقر ، التى لو حاول معها ارتداء الشراب بالطريقة العادية التى يتبعها بقية خلق الله .. لظهرت تلك النقر للأعين جلية واضحة .. أما هو فقد كانت لديه طريقته الخاصة .. فهو يرتدى الشراب ثم يجذبه من طرف أصابعه .. حتى يصبح كعب الشراب فى بطن قدمه .. ثم يثنى الزيادة الى أسفل .. ويضع قدمه فى الحذاء .

ويبدأ بعد ذلك ربط الحذاء .. ولكنه لايكاد يجذب الرباط حتى ينقطع .. فيأخذ فى وصله ويضيف عقدة أخرى الى عشرات العقد التى به .

ثم ينزع الجلباب ويضع القميص على جسده .

وينظر الى اللياقة المنشاة البيضاء .. التى لم تعد بعد بيضاء .. بعد أن علاها ذلك الاطار السميك من العرق والقذارة .. ثم يصيح بأعلى صوته طالبا ياقة أخرى فيجاوبه صوت أمه بأنها عند المكوجى ... فيرغى ويزبد ويهدد بالويل والثبور .

وعندما انتهى صاحبنا من ثورته على المكوجى بدأ يربط الكرافتة وقد احمر وجهه واحتقن .

ووقفت ارقبه وهو منهمك فى ربطها .. حتى انتهى منها .. فوجدته يصيح فجأة :

– الدوبارة .

وهنا حدث هرج ومرج فى الدار فكأنما صيحة الرجل لم تكن فى طلب الدوبارة .. بل كانت انذارا بغارة .. لقد انطلقت الأم وانطلقت الخادم تنقبان هنا وتبحثان هناك .. فى ارتباك وعجلة .

ورأيتنى أجهد الفكر عبثا فى محاولة معرفة ما يريد صاحبنا أن يفعله

بالدوبارة ، أتراه يريد أن يربط بها الشراب ؟ لا أظن ! لأنى أبصر الشراب قد شد الى ساقه بحمالة ... أتراه يرغب فى أن يشد بها البنطلون الى وسطه بدلا من الحزام ؟ .. لا أظن .. فما من أحد يستطيع أن يحتمل ضغط الدوبارة على بطنه ؟ . ولكن من يدرى ؟ .

ولم أجد خيرا من الانتظار .. حتى أرى ما ينوى الرجل فعله .. ولم يطل بى الانتظار حتى أبصرت الخادم قد هرولت اليه بقطعة صغيرة من الدوبارة كانت من فرط القصر بحيث طردت من رأسى كل ظن بأن الرجل سيربط بها وسطه .. فقد كانت لا تكفى حتى لربط فأر صغير ...

ومد احدى يديه لأعلى فى اتجاه الخادم ... ولم تعطه الخادم الدوبارة .. بل أقبلت بهدوء تضع طرف الدوبارة فى عروتى كم القميص ، لتربط بها « الأسورة » بدلا من أزرار القميص .

وهنا فقد فهمت سر الدوبارة ! !

وأخيرا انتهت عملية اللبس وبدا أمامى محمود أفندى فى مظهره النهائى .. أبيض الوجه أحمره .. مبروم الشارب منمقه .. قد مال طربوشه الأحمر الفاقع .. ميلا شديدا على أحد جانبيه .. وأحاطت بعنقه الياقة المنشاة .. ذات الاطار السميك من العرق والقذارة .. وقد بدا فيها كالمخنوق .. ويلى ذلك رباط الرقبة الأحمر الزاهى الذى لم يخل هو الآخر من بقعتين أغلب الظن أنهما آثار دمعة .. أو شوربة .

وخرج صاحبنا منفوخا منفوشا كالديك الرومى .. وهو يهز فى يده مذبته البيضاء .. وقد أطل من جيبه منديل من الحرير الصناعى .. واستقر فى عروة السترة وردة بيضاء كبيرة الحجم قد شغلت حيزا كبيرا من صدره .

وتبعت الرجل وهو يتبختر ويتمايل .. ولاح لخاطرى المصير الذى

ينتظره – أو المفروض أنه ينتظره لولا تدخلى فى الأمر – ووددت لو همست له ببيت أبى العلاء : « خفف الوطأ .. » .. وتساءلت فى نفسى : ترى ماذا يكون شعوره لو أحس بما سيصير اليه بعد هنيهات قصيرة ؟ ..أكان يصر على الانتفاخ والتبختر .. أتراه لو أدرك أنه ميت بعد دقائق معدودات أكان يستمر على الحنجلة والعجب !

ولم يطل به التبختر حتى قد بدأ يسرع فى مشيته ... الى حد الهرولة .. أو العدو .. كأنما استلفت نظره شىء هام يريد اللحاق به ، حتى استقر به المقام أخيرا وراء امرأة لفت جسدها فى أغراء بملاءة سوداء .. وسارت تقرع أرض الطريق بكعب شبشبها .. قرعات موسيقية منتظمة .

ولم أكن من الغباء بحيث لا أدرك .. أن صاحبة الملاءة لابد وأن تكون الآنسة المحترمة : تحية لف التى ستتسبب فى وفاة الضحية الثالثة .. فاقتربت منها لأفحصها عن قرب .. فقد كنت أرى فيها أحد أبطال قصتى .

وكان أول ما لفت نظرى ذلك الاعتدال العجيب فى قوامها .. وهنا يجدر بى – قبل أن أصفها – أن أفهم القارىء جيدا – أنى لست من أنصار الملاية اللف ولا المولعين بها .. وأننى ، رغم أن والدى عليه رحمة الله (وعلى أنا الآخر رحمته) .. لم يكن يفتنه شىء كصاحبات الملايات اللف الساحرات الفاتنات .. الا أننى لم أرث عنه هذه الصفة .. فما كنت فى حياتى تثيرنى قط امرأة فى ملاءة .. وما كنت أحاول أن أنظر فى وجوههن .. وكنت أدهش من رخا الرسام لمحاولته اظهار بنت البلد فى تلك الصورة المغرية الفاتنة .. فقد كنت أراها بعيدة تمام البعد عن الحقيقة .. أو هذا على الأقل ما كنت أراه فى حياتى .

أقول هذا حتى لايظن أحد أن وصفي للفتاة «و من مبالغة معجب مأخوذ بالملاية اللف في حد ذاتها ، أو أنني من القائل مع القائلين : « يا لفتك في الملاية حرمتني أهلي » .. ولكن من يدرى .. ربما كان انتقالي الى العالم الآخر ، قد جعلني من ذلك النوع القديم المولع بالملاية اللف .

على أية حال .. اليكم وصفها كماأبصرتها .. ولتقولوا ما شئتم :

لقد أبصرت ظهرا لم تستطع الملاءة السوداء أن تخفي شيئا من تفاصيله .. على العكس .. لقد أعطته زيادة في الاعتدال والطول .. وأبدته جميل الصنع .. بديع التكوين والتركيب .. وأظهرت الردفين في بروز مستحب وفي استدارة لطيفة .. وشدتهما شدا خفيفا بحيث بدا اهتزازهما أشبه برجرجة طبق من الجلي أو الألماظية .. ومن فوقهما بدا الخصر في ضيق واتساق .

هذا عن الظهر .. أما عن الوجه ، فقد كان وجها فاتنا حقا .. لقد كانت الفتاة في الواقع تستحق أن يموت من أجلها محمود أفندي وأكثر من محمود أفندي .. لقد كنت أحس بالرثاء له ، عندما كنت أفكر أنه سيموت من أجل فتاة .. ولكني لم أكد أراها حتى أحسست بالرثاء لها .. لأن محمود أفندي فقط هو الذي سيموت من أجلها .. فقد كانت تستحق أن يموت من أجلها .. عشرة كمحمود أفندي .

لقد أبصرت بعينيها من خلف البرقع نجلاوين سوداوين صافيتين ، لأهدابهما ظلال ، كظلال الشجرة المورقة فوق الغدير الصافي .. لقد كان الناظر اليهما لا يملك الا أن يطبق عليهما بشفتيه فيوسعهما لثما وتقبيلا .. أما الأنف والفم فقد بديا كذلك في دقة عجيبة كأنما قد رسمهما رسام مبدع متفنن .

أما الصدر فقد بدا من خلال فتحة الملاءة في امتلاء وبروز ، وقد

رفع رفعة طبيعية بلا حاجة الى سوتيان .. ومن أسفل الملاءة بدت ساقاها مخروطتين تنتهيان بقدمين صغيرتين .

هذه هى الآنسة تحية لف التى سيموت – أو المفروض أنه سيموت – من أجلها محمود أفندى .. والتى كنت على استعداد أنا نفسى – لو لم اكن ميتا بالفعل – أن أموت أنا الآخر من أجلها .

وخرجنا الى شارع السد بعد أن اجتزنا الحارة التى كنت أعرفها باسم « درب المدبح » ... تاركين وراءنا عاصفة أثارتها الست تحية أو توحة من الاعجاب والبصبصة .. مخلفين فى الجو خليطا عجيبا من أبلغ آيات الغزل والتشبيب ... التى صدرت عالية من حناجر أهل الحارة من الرجال والصبية .. وكان أبلغها ذلك الصوت الذى تصاعد ملؤه الحماسة والقوة وقد أخذ صاحبه يصفق بيديه ، ويصيح فى نبرات موسيقية طويلة : « يا بت ياللى زى كباب الحلة » .

وقد حاولت أن أوجد وجها للشبه بين توحة وبين كباب الحلة فلم أستطع .. وقلت لنفسى : انه تشبيه غريب فى بابه .. فقد تعودنا أن نسمع من باب الغزل تشبيهات بمختلف أنواع الحلوى ولكنها كلها معقولة .. فعندما يقال : « يا باشا ياللى زى البغاشة » يكون هناك معنى للتشبيه .. ويكون هناك جامع بين المشبه والمشبه به .. وهو الرقة والحلاوة فى كل .. وكذلك عندما يشبه المحبوب بالملبن أو بالهطة القشطة يكون الجامع هو اللين والحلاوة والبياض فى كل .. أما أن تشبيهه بكباب الحلة فهو شىء يحتاج الى شرح وتفسير .. ولكن أغلب ظنى أن وجه الشبه هنا لابد وأنه فرط غرام صاحب التشبيه بالمشبه والمشبه به وفرط لهفته الى كليهما .

واتجهت صاحبتنا يمينا فى شارع السد وسارت بضع خطوات ، ثم

توقفت أمام دكان بقال وسمعتها تطلب « رطل جبنة حلوم .. وبتعريفة فلفل أسود .. وبقرشين صاغ بصل .. وبتعريفة طرشى افرنجى (بس ما يكونش حراق) » ...

ووقف محمود أفندى فى انتظارها على قيد خطوات .. وهو كما هو .. يكاد من فرط الانتفاخ ينفجر .. يهز المذبة باحدى يديه .. ويبرم بالأخرى شاربه .. وقد ازداد فى عينيه الحول وضوحا من فرط استراق البصر ومن فرط النظر من تحت لتحت .

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والثلث ، ولم يبق على وفاة صاحبنا الا عشر دقائق .. كنت أعلم أن معظمها سيقضيها فى انتظار توحة حتى تنتهى من شراء لوازمها ، ثم تعبر الشارع الى الرصيف الآخر أمام سيدى الحبيبى لتبتاع (خمسة أرغفة وبثلاثة مليمات فجل) .

وبمجرد أن تعبر الشارع يعبر محمود أفندى خلفها .. وقد ثبت بصره على ردفيها العجيبين أو على طبق الألماظية كما سبق لنا التشبيه .. وهو شارد الذهن عن كل ما حوله .. وهنا تحدث الفاجعة .. اذ يقبل أحد التاكسيات بسرعة حمقاء مستهترة .. فيصدمه صدمة تكون هى القاتلة .

هذا هو ما يجب أن يحدث .. وهذا هو أيضا ما يجب أن أمنعه .. فقد كان على أن أمنع موت الرجل .. وأن أبقى له روحه فى جسده .. فما كنت فى حاجة اليها .

وبدأت أفكر .. وكانت العملية – عملية الانقاذ – فى هذه المرة ، أسهل بكثير مما سبقها .. أو هذا هو على الأقل ما بدا لى .. فقد كانت المسألة غاية فى البساطة وكان حلها أكثر بساطة .. فالرجل سيموت ،

لأن تاكسى سيصدمه أثناء عبوره الشارع .. فأضمن طريقة لمنع موتة هو أن أمنع مرور التاكسى عند عبوره الشارع ...

وأخيرا رأيت تحية قد انتهت من شراء لوازمها .. وبدأت تعبر الشارع .. ثم رأيت محمود أفندى يوشك أن يبدأ عبوره هو الآخر ... وفى تلك اللحظة لمحت تاكسى قد أقبل من ناحية أبو الريش .. منطلقا بأقصى سرعة .

وهنا أحسست أن اللحظة الحرجة قد أزفت ، وأن العمل يتطلب منى سرعة خاطفة .. فقفزت من مكانى قفزة رائعة وحللت بها فى جسد راكب التاكسى ، وكانت العربة قد اقتربت من شارع التلول فقلت للسائق بسرعة : اتجه الى اليمين ، ولكن السائق نظر الى شزرا .. وبدا لى أنه لم يعجبه هذا الأمر المفاجىء منى ، وأنه لاينوى تنفيذه .. فقفزت الى جسده .. معيدا روح الراكب الى جسدها كما كانت .. وبدأت أنا انفذ بالفعل ذلك الأمر الذى أصدرته وأنا فى جسد الراكب... ودرت بسرعة مخيفة فى شارع التلول .. دورة كادت تقلب العربة .. وتقتل بضعة أطفال يلعبون على باب الشارع لولا ستر من الله .. أو على الاصح .. لولا أن أرواحهم لم تكن مدرجة . فى الكشف الذى أحمله .

وسمعت الراكب يصيح بى فى حنق وغضب : « أيها المجنون الى أين ؟ » .. ولكنى لم ألق اليه بالا .. وقفزت من جسد السائق عائدا أدراجى.. تاركا العربة مندفعة فى شاريع التلول .

ولكنى – لشدة دهشتى – وجدت عربة تاكسى أخرى قد أقبلت من نفس الاتجاه الذى أقبلت منه الأولى وانطلقت محاولة الاندفاع فى الطريق الذى حولت عنه العربة السابقة .

وأسوأ ما في الأمر أن ممحمود أفندى – لعنة الله عليه – كان لم يعبر الشارع حتى الآن . فكأنى به لا ينوى العبور الا فى اللحظة التى يضمن أن يلقى فيها حتفه .

ولم يكن الظرف ليحتمل منى أى بطء .. فقفزت الى جسد السائق الجديد .. ولكنى لمحت وأنا فى طريقي الى جسده .. عربة ثالثة مقبلة من بعيد ، وخلفها عربة رابعة وخامسة .

ووجدت ان المسألة قد أصبحت أصعب من أن أحاول حلها بهذه الطريقة التى أتبعها .. لأن العربات ستتكاثر على دون أن أستطيع تغيير اتجاهها جميعا بنفسى ولابد أن أحداها ستستطيع الافلات فتقتل محمود أفندى – الذى ما زال يقف على الرصيف كأنه الديك الرومى – أثناء عبور الشارع .

وهنا خطرت لى فكرة وجدت فيها خير حل لهذه المشكلة التى أنا فيها .. فلم أكد أدفع بالعربة الثانية فى شارع التلول .. حتى قفزت من جسد السائق فحللت فى جسد عسكرى بوليس كان يقف أمام عربة خيار على باب الشارع .. ثم وقفت فى منتصف شارع السد ، وبدأت أحول المرور كله الى طريق شارع التلول قائلا لأصحاب العربات ان الطريق مغلق وأنهم يمكنهم الذهاب الى ميدان السيدة عن طريق شارع زين العابدين .

ونجحت الفكرة الى أبعد حدود النجاح .. وأخليت شارع السد بأكمله لصاحبنا حتى يعبره فى أمان واطمئنان دون خوف من أن تصدمه حتى عربة يد .

وأدرت رأسى لأرى اذا كان صاحبنا قد انتهى من العبور فوجدته

قد بدأ العبور فعلا .. ولكن شد ما هالنى أن أجد قافلة من عربات التاكسى قد أقبلت على محمود افندى من الاتجاه الآخر .. أى من ناحية ميدان السيدة .. وأصابنى ارتباك شديد .. وقلت ان كل ما فعلت سيذهب سدى .. ولكن خطر لى وقتئذ خاطر عجيب .. لم أجد خيرا منه لانقاذ صاحبنا من شر أعماله .

كان هذا الخاطر .. هو أن أحل فى جسد الفتاة توحة ... نفسها ...

هو خاطر عجيب ولا شك ... وقد أحسست من التفكير فيه بكثير من الخجل ... الخجل من أن أصبح فى آخر الزمن .. امرأة .. بملاءة لف .. ولكن لم يكن هناك بد من تنفيذه .. فالغاية تبرر الواسطة .

ولست أنكركم القول .. أننى أحسست أيضا بشىء من النشوة الى جانب الخجل .. فقد خيل الى أنه لابد أن يكون ممتعا .. ذلك الاحتلال منى للجسد الغض البض .. الناعم الطرى .

وتركت جسد العسكرى الأسمر الخشن .. الشائك الجاف .. لأحل فى ذلك الجسد اللين الشهى .. فكأننى انتقلت من زنزانة فى قره ميدان الى مقصورة فى الأوبرا .. أو من جردل حمض فنيك الى قفص منجه . أو من قروانة عدس الى صينية كنافة بالقشدة .

ولم أكد أحل فى جسد الفتاة حتى عدت أدراجى الى الرصيف الآخر الذى كان محمود أفندى على وشك أن يغادره لكى يعبر الشارع فلم يكد يرانى أعود حتى عاد هو الآخر وعدل عن عبور الشارع .

وتدفقت التاكسيات من هنا ومن هناك وخيل الى إنها تنظر بغيظ الى محمود وتندى وكأنه فريسه قد افلتت من الشرك : ولكنى نظرت اليها

ساخرا فقد كنت اعلم ان روح محمود افندى قد أنقذت .. وأنه لن يفكر بعد ذلك فى عبور الشارع .

وعدت بجسد الفتاة الى درب المذبح لأبعد عن محمود أفندى عن منطقة الخطر ، وسرت بجسدها بين آهات المعجبين وكلمات العشاق .. وقد اعتراني خجل شديد فاني لم اعتدت قط ان أكون امرأة تساق اليها الفاظ الغزل من كل جانب .

وأخيرا ، وبعد أن وثقت كل الثقة أن محمود أفندى « الدهل » قد بات آمنا .. هممت بترك الجسد .. ولكنى قبل ان اتركه همست لنفسى « ان طباخ السم بيدوقه » وانه ليس من العدل فى شىء ان احل فى الجسد ثم اذهب عنه دون ان اتمتع به قليلا ولو حتى بطريق التحسيس .. ثم وجدتنى أتوقف .. وأمد يدى .. فادفع بها فى صدرى - أعنى صدر توحة - فأتحسس الثديين .

تبارك الله فيما خلق . أهذان ثديان ... أم .. أم ماذا ؟ ... أى شىء أستطيع أن أشبه به هاتين الكرتين الساحرتين ، بدفئهما ، وليونتهما ، وتماسكهما ، واستدارتهما ، وحلمتيهما البارزتين .. أى شىء أستطيع أن أشبهها به .. لا شىء .. فانى لا شك أظلمهما بأى تشبيه .. فهما نسيج وحدهما .

وقبل أن أترك الجسد منحت أفندى ابتسامة ، وغمزت له بعينى .. ثم تركت الجسد ، وتركت محمود افندى يسوى أمره مع صاحبته .. وذهبت فى طريقى .

● ● ●

الفصل التاسع

أبو السعد

كان موعدى مع الروح التالية – أو على الأصح الأرواح التالية – هو الساعة الخامسة .. وكنت أحس أن المسألة فى هذه المرة على كثير من الخطورة .. فقد بدا لى الحادث الذى ينتظر وقوعه سيكون حادثا مروعا .. وكنت أخشى كثيرا ألا أستطيع منعه .. فما تخيلت أن مثلى يمكنه أن يمنع تراما قد نوى الخروج من شريطه وتحطيم بيت أو بيتين وقتل بضعة أرواح .. بسهولة .. أو حتى بصعوبة .. فرغم أنى لم اكن أخشى الدخول فى صراع مع كائن من كان .. الا أن فكرة الصراع من ترام .. لم تكن بالشىء الذى ترتاح اليه نفسى .. وخاصة أننى قد مت صريع ترام .

وسريت من شارع السد الى ميدان السيدة ، واتجهت الى العتبة ، وأنا أعتصر الذهن على أجد وسيلة لمنع الترام من أن يركب رأسه ويحيد عن جادة الصواب ، فيخرج عن الشريط ويرتكب جريمته المروعة .. وأخذت أستعرض الحلول المقترحة أمامى الواحد تلو الآخر .

كان أول ما خطر لى هو أن أحل فى جسد السائق لأمنع وقوع الواقعة .. ولكنى استسخفت نفسى .. فما سبق لى أن اشتغلت سائق ترام

قط .. وما كانت قدرتى فى قيادته .. بخير من قدرة ساسة البلد فى ادارة دفة الحكم .. وتخيلت نفسى بالبذلة الصفراء والطربوش يكاد يخفى أذنى ، وقد فصل بينه وبين رأسى منديل محلاوى تدلى على قفاى وعلى وجهى ... وأنا مندفع بالترام والكمسارى ينفخ فى مزماره محاولا ايقافى .. وأنا أعرف كيف أوقف الترام .. وكلما حاولت ايقافه ازدادت سرعته .. واصاب ركابه فزع شديد ، فأخذوا يقذفون بأنفسهم منه ، وأخذ الناس يعدون خلفى بعرباتهم ودراجاتهم يصيحون بى ويهددونى وأنا فى أشد حالات الذعر والارتباك .. ثم ينتهى الأمر أخيرا بأن يخرج الترام عن شريطه ويحصد أرواح البشر دون أن أستطيع أن أفعل شيئا ... لا ... هذا حل أحمق .

وخطر لى بعد ذلك أن أحل فى جسد الكمسارى حتى أستطيع أن أوقف الترام بنفخة فى المزمار فى الوقت والمكان المناسبين .. وخطر لى أيضا ان أحل فى أى جسد من أجساد غواة الشعبطة ، فأستطيع بذلك أن أجذب السنجة فأوقف الترام وقتما أشاء .. ولكنى استبعدت هذين الحلّين ، لأنى لم اكن أعرف بالضبط المكان الذى ستحدث فيه الحادثة ، وقد ينتج عن ذلك أننى ربما أوقف الترام قبل الحادثة بمسافة ، ثم يعاود السير ويرتكب الجريمة .. أو يرتكب الجريمة قبل أن أكون قد فكرت فى ايقافه .. لا ... هذا حل غير موفق .

وخطر لى بعد ذلك حلول سريعة كانت كلها عديمة الجدوى .. فخطر لى مثلا أن أغير لافتة الترام فأجعله يذهب الى السيدة بدلا من الامام .. أو افسد الترام فأجعله غير قادر على السير .. أو أعلق عليه لافتة أحذر منه الناس فأقول مثلا : « راكب الترام مفقود والنازل منه مولود » .. او اشترى الترام بأكمله كما سبق أن اشتراه غيرى من قبل ... أو امنع

المرور من شارع محمد على ... أو .. أو .... مئات من الخواطر تواردت على ذهنى .. وكلها كما قلت لا فائدة فيها .

وفجأة خطر لى خاطر .. جعلنى أصيح من فرط الطرب .. لقد برق فى رأسى كما تلوح فكرة لمخترع اعياه البحث عنها ، أو كما تلوح الأرض لمستكشف طال انتظاره لها .. وصحت كما صاح غيرى من قبل : لقد وجدتها .. لقد وجدتها .

وتنفست الصعداء .. واحسست أن عبئا قد رفع عن كاهلى .. حيث كان الحل غاية فى البساطة .. ولقد كنت غبيا لأننى أجهدت ذهنى بالتفكير فى كل تلك الحلول السابقة .

أبو السعد هو مفتاح الموقف .. أبو السعد افندى الذى قد كتب عنه فى المذكرة التى أحملها .. أمر بألا تصعد روحه مع الأرواح الصاعدة ... أبو السعد افندى هو الشخص الذى لا يجب أن يموت فى هذه الحادثة .. لأنه مطلوب لحوادث أخرى مماثلة .

اذاً لقد وضح الأمر .. فانهم يعتمدون على نحس أبو السعد افندى لاجراء مثل هذه العمليات المروعة .. فما على لكى أمنع الكارثة ، الا أن أرحم الترام وراكبيه من نحسه .. فابعده عنهم.. لقد كانت المسألة غاية فى البساطة .. ولن تحتاج لأى عنف أو دخول فى صراع مع الترام .

ودخلت فى مقهى فى العتبة ، وجلست أرقب ساعة البريد ، حتى بلغت الخامسة الا خمس دقائق .. فأبصرت ترام (١٣) قد أقبل .. فلم أشك فى أنه الترام المطلوب .. وسريت اليه أجول بين ركابه حتى وقع بصرى على شخص أوحى الى منظره أنه لابد أن يكون هو أبو السعد

افندى ، وفعلا لم تمض لحظة حتى سمعت صاحبا له قد جلس الى جواره يناديه بأبى السعد .

وأخذت أتأمل الرجل وقد تواردت على ذهنى فصول النحس وحوادث المنحوسين الذين صادفتهم من قبل .

وخشيت من ضياع الوقت .. فهبطت الى جسده بسرعة .. ولم يكد الترام يقف فى المحطة التالية حتى قفزت منه وأخذت أعدو بأقصى سرعة لابتعد عنه وعن الشارع بأكمله .

ووقفت فى شارع الأزهر وأنا - أو أبو السعد افندى - الهث من فرط التعب .. والناس يحدجوننى بدهشة .. وأحسست بالغبطة .. وتملكنى شىء من الغرور . فقد استطعت أن أمنع حادثة مروعة بأبسط الطرق .. اننى لا شك رجل ذكى .. رغم ما كان يصيبنى فى بعض أوقات حياتى من غباء مطلق .. ولكننى الآن شعرت أننى حقا على كثير من الذكاء .

وفيما أنا واقف فى جسد أبو السعد افندى أمتدح لنفسى ذكاءها أحسست حولى بشىء غير عادى ، ورأيت روحى تصعد من الجسد رغم أنفى ، ورأيت روح أبو السعد افندى تهبط من الجسد رغم أننى أيضا .. ولم تكد الروح تهبط فى الجسد حتى رأيت الرجل يعدو بأقصى سرعة ليلحق الترام .. وأصابنى شبه ذهول .. اذ لم أدر ما الذى أفقدنى تلك السيطرة التى كنت أتمتع بها .. ولم أجد فى يدى العصا .. ولم أجد الكشف ولا الجهاز .

عجبا .. ماذا حدث ؟ ! . وأين العصا .. وأين ذهبت قدرتى على

تحريك الأرواح .. وتلفت حولى .. فاذا بى أجد عزرائيل قد وقف بجوارى ! ...

يا لى من أحمق مأفون ! ! . أهذا هو الذكاء الذى أتمتع به ... أهناك على ظهر الأرض أو فى طباق السماء من هو أغبى منى ! ! .

وأى غباء يمكن ان يكون أكثر من ذلك الذى دفعنى الى أن أحتل جسد أبى السعد افندى .. وأنا اعلم ان ما به من نحس كان كافيا لأن يخرج تراما عن شريطه ، ويقتل عشرين شخصا ، ويهدم بيتين .. أى غباء ذلك الذى دفعنى لأن أحتل جسده مع علمى بأن السماء تجد نحسه ضرورة للنوازل والكوارث .

وخطر لى أن أعدو خلفه فأقبض عليه من زمارة رقبته وأمثل به أفظع تمثيل .. ولكنى علمت أن عزرائيل سيقف بينى وبينه .. فهو يعتبره من أعوانه فى الأرض وعلمت أنه لابد قد وصل الى الترام .. وأن الحادث لا محالة واقع .

ونظرت الى عزرائيل شزرا .. فبادلنى نفس النظرة .. وبدا لى انه ينوى أن يصب علىّ جام غضبه ، فعولت على أن أهاجمه قبل أن يهاجمنى وتصنعت الهدوء ، وقلت له متهكما وأنا أشير الى وجهه :

- امسح الأحمر الموجود فى ذقنك .. ان صاحبتك تستعمل أحمر من نوع ردىء .. أنصحك بأن تسرق لها اصبعا ماكس فاكتور .

وتصعدت الدماء فى وجهه وقال حانقا :

- كفى هذرا .. الأحمر هذا تستعملونه فى الأرض لكى تغشوا بعضكم بعضا .. أما عندنا فى السماء ....

– أحمر طبيعى ؟

– طبيعى أو غير طبيعى .. هذا ليس من شأنك .. قل لى ما هذا العبث الذى صنعته .. وهل هذا هو الوعد الذى وعدته لى .. هل تعتبر نفسك رجلا ؟

– احفظ لسانك .. وكف عن قلة الأدب .. فأنت تعرف تماما أننى رجل .. واذا لم تكن واثقا من ذلك .. فيمكنك فى فركة كعب أن تفحص جسدى فى قرافة المجاورين .

وهنا بلغ به الغيظ أشده ، وخيل الى أنى ألمح شررا يتطاير من عينيه .. ولكنى لم أخف .. وماذا أخشى منه وهو لا يملك الا الموت .. واردفت أقول فى نبرات هادئة :

– هل تنوى حقا أن تترك الترام يفعل فعلته ؟

فصاح فى دهشة :

– أنوى حقا ؟ ! ... هذا شغل .. هذا هو واجبى الذى يجب أن أؤديه .. ألا يكفى ذلك الارتباك الذى أحدثته خلال اليوم .. وأنا مطمئن الى وعدك . لم جعلتنى أركن اليك .. ثم حنثت بوعدك .. ولكنى أنا المخطىء .. ان الذنب كله ذنبى .. كان يجب أن أتوقع ذلك .. ولكنك خدعتنى .. وبدا لى من مظهرك أننى أستطيع الاعتماد عليك .. ماذا أفعل فى الارتباك الذى أحدثته لى ؟

وبدت فى صوته رنة حزينة حركت قلبى فقلت له فى شىء من العطف :

– لا شىء .. المسألة يمكن تداركها .. ولن تستغرق منا أكثر من

ربع ساعة نمر خلالها على الأرواح فنقبضها بالجملة .. فى هدوء وسكينة .. أم تظن أنه من المحتم علينا أن نقبضها بتلك الكيفية المزعجة المبينة بالكشف ... غرق .. وهدم ...

– هذا هو الذى كان يجب عمله .. فالمسألة لابد لها من اخراج جيد .. ولابد أن تتنوع أسباب الموت حتى تكون فجيعة الناس أوقع .. ولكنا لم يعد أمامنا الآن لاصلاح ما أفسدت الا أن نقبضها جملة وأن نأخذها سلق بيض .

وتحرك عزرائيل بعد أن أشار الى بأن أتبعه .. ووصلنا الى شارع محمد على ، فوجدت الترام قد أصابه عطل فتوقف حتى استطاع أبو السعد افندى اللحاق به ، ثم تابع السير .. وبعد لحظات قصار وقعت الواقعة .

وطلب منى عزرائيل أن أنتظره حتى يجمع الأرواح ورأيته يحملها كأنه يجمع أعقاب السجائر .. ثم تركنا المكان بضجيجه وعجيجه وصراخه ونواحه ... وسرينا جنبا الى جنب صاعدين الى السماء ثم توقف عزرائيل برهة وقال لى معاتبا :

–ألا تشعر بخجل شديد من نفسك ؟

– خجل ؟ ! ! ... ولم ؟

– من ذلك العبث والحماقة التى ظللت ترتكبها طول اليوم .

عبث وحماقة ؟ .. والله لولا أبو النحس .. لأريتك أن ما فعلته لم يكن عبثا ولا حماقة .. ولأعطينك درسا فى كيفية القيام بواجبك .. ولعلمتك كيف يجب أن يكون الموت .. ان ما تفعله هو الحمق .. لا ما فعلته أنا .. لو تعلم أى أرواح كنت أنوى أن أقبضها وأى نظم كنت أنوى

وضعها للموت .. لعلمت انى كنت سأرفع مقامك بين البشر . وأجعلهم يجلونك ويحترمونك .. ولكن أنت وشأنك .. لقد قالوا فى الأرض : « ولا تصنع المعروف فى غير أهله » والظاهر أن هذا القول ينطبق أيضا فى السماء .

ونظر الى عزرائيل نظرة ازدراء ولم يزد على أن قال :

– مسكين .. بنى آدم ! !

تماما كما نوجه نحن القول الى حمار ، وأثار بقوله حنقى فأجبته :

– معك حق .. لو لم أكن « بنى آدم » لما أطعتك ورضيت أن أعود معك الى الأرض .. ولما حاولت التستر عليك وعلى أخطائك .. ولما سكت عن مطالبتك بتعويض لما سببته لى من ازعاج .. ولكننا على أية حال ما زلنا فيها .. انى لن أعود الى الأرض .. وسأسبب لك فضيحة كبرى .. وسأنشر بين أهل السماء خبر غرامك .. وأحدثهم عن تسللك الى الجنة لكى تقابل عشيقتك .. وتقضى معها طيلة اليوم .. تاركا أعمالك فى أيدى نفر من البشر .. والله لأجعلن يومك أسود كعملك .. ولأرينك أننى حقا بنى آدم .. يا عزرائيل النحس .

ومد عزرائيل يده فوضعها على فمى وقد أصابه ذعر شديد . وقال فى صوت هامس :

– لا ترفع صوتك هكذا .. أيها المجنون .. والا سمعك أحد من أهل السماء .. والله ما رأيت مثلك أرعن أهوج .. لقد صدق مثلكم القائل . « لا تقرب المجنون ولا تدع المجنون يقربك » .. ماذا أغضبك من قولى لك « بنى آدم » ألست بنى آدم .. على أية حال حقك على .. هات رأسك .

ثم مد كفيه فقبض بهما على رأسى وطبع عليه قبلة حارة كانت بمثابة عربون الصلح .. ونظرت اليه وقلت مستضحكا :

– حدثنى كيف قضيت يومك .

– لقد كان يوما عظيما .. حافلا .. لقد كانت مدهشة « آه لو كنت معى » .. ولكن هيا بنا الآن فليس لدينا وقت الحديث .. اننى أود أن أقبض الأرواح التى أنقذتها .. قبل أن يحل موعد الروح التالية .

وامسك الكشف الذى به بيان الأرواح وأخذ يقرأ :

« حسين قدرى .. الساعة الخامسة والنصف .. عربة بويك مقلوبة فى شارع الهرم .. أمامى الآن عشرون دقيقة لأقبض فيها الخمس أرواح الأولى .. وانى أفضل أن أذهب وحدى حتى لاتعرقلنى صحبتك .

ولكنى لن أعرقلك .

– ولم تود أن تصحبنى ؟

– لا تسخر منى .. أنى أود أن أرى زيزى مرة أخرى .

– ولهذا السبب نفسه .. لا أود أن أصحبك .

– لا تكن عنيدا ... ماذا ستضيرك رؤيتى اياها !

– لا .. لا .. انك رجل شديد الضعف أمام النساء .. وستأخذك بها الرحمة ... كما أخذتك من قبل فترجونى أن أتركها .. وتدخل معى فى مناقشة .. وتضيع وقتى سدى .. وأنا فى حاجة الى كل دقيقة .

– اذا كنت تعلم ذلك ، فلم لا تكفى نفسك مؤونة المناقشة .. وتتركها من أجلى .

– ألم أقل لك ؟ هذا هو ما كنت أخشاه .. يا سيدى لا فائدة .. ان روحها لابد ستؤخذ ..لا فائدة فى الرجاء .. لأن لا أملك قبوله .

– اذا فلا أقل من أن تأخذنى لأتزود منها بنظرة أخيرة .. وأعدك الا أطالبك بابقائها .. دعنى أتأمل من روحها الطاهرة الجميلة .

– روحها ؟ ؟ .. اذا كانت المسألة مسألة روح .. فانى سأحضر لك روحها دون أن أحملك عناء الانتقال .. انتهينا ؟

وأخذت أفكر برهة .. روحها ؟ ! ! ... وماذا عساى أصنع بروحها ؟ .. ماذا عساى أن أجد فى روحها المجردة من شعرها المسترسل .. وساقيها الممتلئتين .. وصدرها المكتنز .. ما عساى أن أفعل بالروح بعد أن فارقت الجسد ؟

ورأيت عزرائيل يرقبنى من طرف خفى فقلت له :

– انى أريد الجسد .. لا الروح .

– وماذا تفعل بجسد بلا روح .. جسد هامد لا حياة فيه .

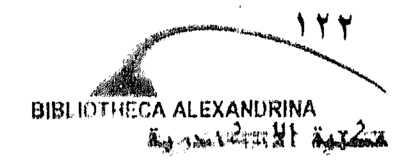
– اذا فانى أريد الروح فى الجسد .

وبدا عليه الضيق وقال وقد نفذ صبره :

– لاتكن عنيدا كالأطفال .. سأذهب الآن ، وموعدنا فى العربة البويك .. الى اللقاء .

وانطلق عزرائيل وخلفنى وحيدا .

● ● ●



الفصل العاشر

فى عربة " بويك "

تركنى عزرائيل وحيدا فانطلقت أستبقه الى الضحية التالية .. ولم يصعب على العثور عليها ، فقد لفتت نظرى العربة الأنيقة الزرقاء الواقفة على الجانب الآخر أمام حديقة الحيوان ووجدت على مقعد القيادة شابا .. يصح أن يكون نموذجا لذلك النوع الذى نطلق عليه « ابن ذوات » .. ولن أحاول أن أنتهز الفرصة فأحمل على هذا النوع ... فاننى أكره الانتقاد .. لأننا كثيرا ما ننتقد أناسا مر الانتقاد ، فلا تكاد الظروف تضعنا فى مواضعهم حتى نصبح شرا منهم ونفعل شرا مما فعلوا ، وقد علمتنى الظروف ألا أنتقد أمرا لأننى لو استطعت أن أرى بعينيه وأفكر بعقله لما فعلت الا كما فعل .. بدليل أنه هو نفسه لا يستنكر ما يفعل .. فالظروف المحيطة به قد أرته ما يفعل – وما بدا لنا منكرا – شيئا لا غبار عليه ، ولا حرج من اتيانه ، فالذى لا يقامر بنتقد المقامر . ولو أحاطت به الظروف التى أحاطت بالمقامر ، لرأى القمار شيئا لا حرج منه ولا عيب فيه .. والشخص الذى لا يحب ، ينتقد العشاق ويتهمهم بالضعف والسخف ، ولو مسه الحب لأرداه صريعا ولعلمه كيف لا ينتقد العشاق وأفعالهم ... وانى لأعرف صاحبا لى كان ينتقد آخر لأنه يتحدث

في التليفون مع صاحبته فترة طويلة .. وكان يتعجب منه ويتساءل :

كيف يطيق الكلام كل هذه المدة ... ومرت الأيام وأحب صاحبي فاذا به يجلس الى التليفون ليشغله كل يوم ما يقرب من الساعة ، ونسي سابق دهشته وانتقاده .

أجل لست أرى داعيا لأن أنتقد صاحبنا ابن الذوات ، اذ من يدرى لو أتاح لى الله غناه .. وأعطانى عربة بويك وملبسا أنيقا وشكلا وسيما .. وقدرة على اغراء الفتيات ... من يدرى أننى كنت لا أفعل فعله .. فأضيع عمرى .. أنتهب اللذات وأقتنص المتعات .. من يدرى أن تعففى (اذا كان هناك تعفف) ليس الا مجرد قصر ديل ... نظرت الى الفتى فرأيته على حد قولهم « يشف ويرف » بجاكتته النايلون الناصعة البياض ، والياقة الفان هوزن والكرافتة الأنيقة .. والمنديل الحرير من نوع الكرافتة .. وقد وضع فى عروة السترة زهرة بيضاء صغيرة ، ووضع على عينيه منظارا أمريكيا مذهب الاطار .. وبدا فى جملته غاية فى الوسامة والأناقة .

وأقول الحق : اننى استخسرته فى الموت .. وعجبت لعزرائيل الغبى .. كيف ضاقت به الدنيا فلم يجد سوى هذا الفتى اليافع النضير ليقبض روحه .. وتمنيت لو استطعت أن أقنع عزرائيل أن يأخذنى بدله .. حقيقة انى شاب يافع مثله .. ولكننى قد مت وانتهى الأمر .. وليس بى شديد رغبة فى العودة الى الحياة .. لأننى لن أكون خيرا مما أنا .. فماذا يضيره لو قبل البدل .. وصعد بى الى السماء على أنى حسين قدرى .. وترك الفتى يتمتع بشبابه وماله ووسامته .. من يستطيع أن يكتشف أننى لست الروح المطلوبة ؟ .. من يستطيع أن يميزنى وسط

تلك الأرواح الحاشدة .. وخاصة اذا راقبت الفتى جيدا حتى استطيع تقليده فى السماء اذا ما قبل عزرائيل البدل .

وبدأت أنظر الى الفتى نظرة فاحصة شاملة .. وأرقب حركاته جيدا .. وأحسست بالطمأنينة لأنى لم أجد به شيئا يصعب تقليده .. اللهم الا ذلك المنديل الذى وضعه فى كمه .. فانى أذكر أنى قد حاولت ذلك الأمر فى حياتى بضع مرات مقلدا أبناء الذوات ، فكانت النتيجة أننى عندما احتجت الى المنديل بحثت عنه فى جيبى ناسيا أننى وضعته فى كمى .. فلما لم أجده .. اضطررت الى أن أتمخط فى يدى .. كأبناء السبيل .. ولم أكتشف المنديل الا عندما عدت الى البيت إذ سقط منى وأنا أخلع السترة .

ولكنى تذكرت فجأة أننى لن أحتاج الى وضع المنديل فى الكم .. لأنه لن يكون معى منديل ولاكم .. فالمفروض اذا ما صعدت روح الفتى أنها ستصعد بلا جاكتة نايلون .. وبلا نظارة أمريكانى ... وبلا عربة بويك .. قد يكون بالفتى رغبة فى أخذها معه .. حتى يبدو أرستقراطيا بين بقية الأرواح من أمثال عم حنفى ...

ولكنى لا أظن عزرائيل سيسمح له بذلك .

وفيما أنا منهمك فى التفكير فى هذه الخواطر .. وقد انجعصت فى مؤخرة العربة .. وأحسست بشىء من العظمة والنفخة .. فما اعتدت فى حياتى على العربات البويك ولا غير البويك .. لأنى كنت أجيد استخدام ساقى .. وكنت دائما أقنع نفسى أن المشى هو خير رياضة للبدن .. وانه يقوى عضلات الساقين .. رحمة الله على ... لقد كنت حمارا كبيرا .. أحاول أن أقنع نفسى دائما بأن الخير فيما أعطانى الله .

أقول فبينما أنا منهمك فى التفكير فى هذه الخواطر حمل الى النسيم شذى عطر نسوى نفاذ .. وتلفت بعيني فرأيتها مقبلة؟ ! ! .

قاتلنى الله .. اننى ما زلت كما أنا .. لقد ظننت الموت سيجعل منى مخلوقا تقيا وقورا ، وسيعلمنى الزهد والورع .. ولكن لا والله ما علمنى شيئا من هذا .. اننى أنا هو أنا .. ولهان الدنيا ولهان الأخرة .. ما زلت أرانى صريع كل غانية .. قتيل كل فاتنة .. كل حسناء أراها أردد فى نفسى قول الشاعر : « هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان » وكل ساحرة ألقاها .. أقول انها توأم روحى ونصف نفسى .. حتى لكأنى بحسان الدنيا كلها توائم نفسى ... ما أبصرت واحدة منهن الا وقلت لنفسى ان هذا هو الحب من أول نظرة .

والآن – وأنا لست الا روحا مفروضا فيها أنها تقية صالحة -- لم أكد أبصر صاحبتنا مقبلة حتى قفزت من مكانى وأخذت أحملق فيها بنهم وبودى لو استطعت أن آكلها .

ماذا أقول فى شعرها الشديد الحلكة وعينيها السوداوين الصافيتين .. وقد بدتا لى كأنهما فوهتان مدفع تصوب منهما صاحبتهما نظرات « يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به » .

والله لو لم أكن أنا نفسى (ميت جاهز) ولو لم أكن صريع ترام .. لقلت ان الفتاة قد أصابتنى بنظرة صرعتنى .. لقد كانت الفتاة من نوع خطر .. ولست أدرى كيف يسمحون لها هكذا بالسير فى الطرقات مكشوفة العينين .. وكيف لم تعتبر « المحافظة » عينيها سلاحا خطرا . وكيف أجازت لها أن تسير دون أن تحمل رخصة حمل سلاح ؟ ! .

دلفت الفتاة الى العربة فى رشاقة وخفة ، ومدت يدها البضة الى الفتى فرفعها الى شفتيه وطبع عليها قبلة رقيقة .

وأدار الفتى العربة وبدأنا السير ، وبعد لحظة سمعت الفتاة تقول :

– ارفع يدك .. عيب .

ومددت رأسى لأرى ما هذا العيب الذى يفعله الفتى بيده ، فرأيته قد نقل الفتيس فى الثالث وترك يده تتحسس ساقى الفتاة . فقلت فى نفسى ، وبودى لو كنت مكانه :

– أستغفر الله العظيم .

ولم يرفع الفتى يده بالطبع بل تركها ورأيت الفتاة تسند رأسها على كتفه .. وخرجت من صدرها تنهيدة وسمعتها تقول فى صوت رقيق :

– لست أدرى لم أحس بانقباض اليوم ! ! .

وكنت أنا أدرى طبعا .. وأحسست بالعطف يملأ نفسى على هذين العاشقين السعيدين ، وقلت لنفسى : والله يا عزرائيل النحس .. لن أمكنك من أن تفسد عليهما يومهما .. سأعرف كيف أقفك عند حدك .. تقضى يومك مرتميا فى أحضان عشيقتك .. ثم تهبط بعد ذلك فتفرق الأحباب دون أدنى شفقة منك ولا رحمة .

وفى تلك اللحظة أحسست بالعربة تسرع وتمنيت لو استطعت أن أحذره ، ولكن صوتى لم يكن يصل اليه .. وعدت أقول فى نفسى مخاطبا عزرائيل :

– أنانى .. جامد العقل .. قليل التصرف .. تماما كالموظف الغبى الذى يحاول أن ينفذ القانون بحذافيره .

وهنا رأيت الفتاة تمد شفتيها تتحسس بهما رقبة الفتى ثم ذقنه ، وتقترب من شفتيه شيئا فشيئا .. وأحسست بنشوة جارفة ولذة عجيبة .. وأردفت أقول لنفسى مخاطبا عزرائيل :

– ما يضيره هذا الغبى لو تصرف قليلا ... فاستبدل بالفتى اليافع مريضا أو عجوزا .

ووصلت شفتا الفتاة الى شفتى الفتى وأخذتا تمساهما مسا خفيفا ... وهنا رأيت الفتى قد أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وضغط شفتيها بشفتيه ضغطا عنيفا .

ونظرت الى عجلة القيادة فوجدتها تتأرجح فوقف شعر رأسى ... وفي غمضة عين كان قد انتهى الأمر ورقدت العربة البويك مهشمة على أحد جانبيها بعد أن لفت على نفسها بضع لفات ... ورأيت عزرائيل قد وقف أمامى وقد قبض على روح الفتى .

وتملكنى الغضب فهجمت عليه صائحا :

– اترك الروح .. اسمع نصيحتى فهذا خير لك . قلت لك أعد الروح الى صاحبها .. والا جعلتك تندم مدى حياتك .

وربت عزرائيل على كتفى مهدئا وقال :

– هدىء نفسك .. ولا تكن أحمق .. لقد قلت لك ان هذا شغل وانني لابد أن أقوم بواجبى .. ولا أملك أن أبدل فيه .. تعال معى .. نتمشى قليلا ، اننى أعلم أن أعصابك ثائرة وفى حاجة الى الهدوء .

وسرت بجواره وقد أخذت ثائرتى تهدأ رويدا رويدا .. وبعد برهة التفت الى عزرائيل قائلا :

– والآن .. أتسمح لى أن أعيدك الى جسدك ؟

– ما دام لابد من عودتى .. وما دام لم يعد من الحياة بد ... فعد بى .

الفصل الحادى عشر

فى السجن السفلى

وسرينا فى الهواء .. ووصلنا أخيرا الى حيث الجسد قد وورى الثرى .. وأحسست فجأة بضيق شديد كالذى يشعر به المرء عندما يحشر نفسه فى بذلة ضيقة . وشعرت أنى دخلت الأسر بعد طول حرية وانطلاق .

وحاولت الحركة فاذا بى لا أستطيعها ، وفتحت عينى فلم أبصر سوى ظلمة فوق ظلمة .. ونفذت الى أنفى رائحة كريهة عفنة ، وشعرت بالندم يخزنى .. على استكانتى لعزرائيل ورضائى العودة معه الى هذه الدار المكروهة بعد أن انطلقت من أسارها .

ولكن الظلمة لم تطل .. فقد بدا لى بصيص من ضوء .. وأنعمت البصر فيما حولى فاذا بى فى جوف القبر الذى قد ثوى فيه جسدى ... واذا بى أرى عزرائيل قد أقبل على من فتحة فى أعلاه وسألنى باسما :

كيف أنت الآن ؟ .

فأجبته فى غضب وانفعال :

– على شر حال ! ! لا لا يا سيدى لم تكن هذه شهامة منك .. أرجوك أن تعيدنى .. اتوسل اليك .. هذه الدار لا تطاق .

وكنت على حق فى انفعالى وغضبى . فقد كان بى شعور القاطن فى جاردن ستى الذى أعادوه فجأة الى سيدى زينهم أو عشش الترجمان .

وربت عزرائيل على كتفى وأجاب :

– هدىء من روعك .. لايمكن أن أعيدك الآن فدورك لم يأت بعد ، ولكنى أعدك وعد عزرائيل .. أنى سأعيدك فى أقرب فرصة .. وسأحاول جهدى تقديم دورك ما استطعت .

وشعرت باليأس يتملكنى .. ولكن لم يكن هناك بد من الاستسلام لقضاء الله ، وبدأت أعزى نفسى بأن عودتى لا شك ستسر أهلى أشد سرور وتذهب عنهم الحزن واللوعة التى أصابتهم بفقدى .

ونهضت من مكانى فاذا بى عارى الجسد .

لعنة الله على أهل الأرض ... لقد أخجلونى أمام عزرائيل .. حتى الجسد قد سلبوه كفنه الذى تدثر به .

ونظرت الى عزرائيل متسائلا :

– ألا ترى أنى لا أستطيع الخروج بهذه الهيئة .. والا ظننى الناس مجنونا .. وزجوا بى فى مستشفى المجانيب .

وصدق عزرائيل على قولى وأجابنى أنه على استعداد لاحضار ما يلزمنى من الملابس .. فطلبت منه أن يأتينى من البيت بثياب كاملة وأن لا ينسى عدة الحلاقة وكمية من النقود ...

وعاد عزرائيل سريعا يحمل ما طلبت وأخبرنى أنه سرى بين أهل الدار دون أن يشعر به أحد وانه لم يجد أية صعوبة فى احضار الملابس .. فقد كانت ما تزال فى مكانها الذى وصفته له .

وسألته عن حال أهل الدار وعن مبلغ ما بهم من حزن وأسى .. فقد كنت أصور فى رأسى وقع المفاجأة التى سأفاجئهم بها وأتخيل مبلغ ما سيصيبهم من فرح وسعادة .

وصمت عزرائيل لحظة ، ثم سألنى سؤالا أدهشنى بعض الشىء :

– أكنت مؤمنا على حياتك ؟

– نعم .. ولكن لم السؤال ؟

– أغلب ظنى أنهم قد قبضوا التأمين .. فقد كان حديثه هو ما يشغلهم ، ويخيل الى أن فى نفوسهم بعض السخط عليك لأنك لم تزد من قيمته .. وكذلك سمعتهم يتحدثون عن القضية التى قد رفعوها على شركة الترام .. وهم يقولون انهم ينتظرون أن يحصلوا منها على مبلغ عشرة آلاف جنيه .. تعويضا لهم عن شخصك العزيز .

وقهقه عزرائيل :

– الظاهر أن موتك كان لقطة .

وتملكنى الوجوم وهرشت رأسى بيدى مستغرقا فى التفكير .

لقد كان الشىء الوحيد الذى يسبب لى التعزية فى عودتى الى الحياة .. هو ذلك الفرح الذى كنت أتوقع أن يغمر الأهل والأحباب .. ولكن يخيل لى الآن أن عودتى ستسبب لهم خسارة ما بعدها خسارة .. وستحرمهم مبلغا ما كانوا يحلمون به .. وستسبب لهم فجيعة أهون منها فجيعة وفاتى .

ولم أستطيع أن أمنع دمعتين سالتا على خدى الغائرين ونظرت الى عزرائيل فى يأس وقنوط وسألته متوسلا :

- خذني معك وارحمني من هذه الدار .. أليس في قلبك بعض الرحمة ؟ ! لقد نجدتك فيما سبق .. أفلا تنجدني الآن ؟ .

ورق عزرائيل لحالي ، وأحس لي الرثاء ، ولمحت دمعة تترقرق في عينيه .. لقد بكى عزرائيل من أجلي :

-- هون عليك ولا تبتئس .. وثق أنني سأعيدك في أقرب وقت .. فسأحشر اسمك في أول دفعة نقبضها من الأرواح .

وأحسست بعد هذا الوعد من عزرائيل بشيء كثير من الراحة والاطمئنان وصممت ألا أغادر مكاني حتى يبر بوعده ، ولكني شعرت بقرصة الجوع تلذع أحشائي فسألته أن يحضر لي طعاما .

وعاد عزرائيل بعد لحظة ومعه سندوتش طعمية وقطعتان من السجق والطحال خطفهما من أول بائع صادفه في الشارع فدفع بهما الي وانصرف الى سبيله .

وبعد هنيهة استغرقت في النوم فرأيت فيما يرى النائم أن عزرائيل قد بر بوعده فعاد الي وصعد بي الى السماء وغاب عني برهة .. فأخذت أجوب السماء وحدي أسلي نفسي بما فيها من مشاهد ومناظر .. فوجدت نفسي أخيرا أمام باب ضخم أنيق ، فانتهزت غفلة من الحارس ودلفت منه الى الداخل .. فرأيت ما أذهلني وأثملني .. ولم يداخلني ريب في أن هذه هي الجنة .

ووقفت وراء كومة من العشب الأخضر أرقب ثلاثا من الحور العين .. عابثات لاهيات على شاطيء نهر من شهد مصفى ، وشعرت أني لا أود مغادرة المكان ، ولكني خشيت أن يفتقدني عزرائيل .

وأردت أن أعود أدراجى ، ولكننى ضللت الطريق . وظللت أتخبط على غير هدى .. حتى رأيت بابا أضخم من الأول .. ولكنه أقبح منظرا .. وتقدمت من حارسه عله يدلنى على الطريق ، ولكنى ما كدت أقترب منه حتى أحسست بيدين قويتين تقبضان على وتقذفان به الى داخله .

وشعرت بلهب يلفح وجهى ، فعلمت أنى فى جهنم وبئس المصير ، وجاهدت فى أن أفر ، ولكنى أحسست أنى عاجز عن الحركة .. وسمعت ضجيجا يصم الآذان ورأيت حراس الجحيم بوجوههم المفزعة ورماحهم الملتهبة وأبصرت كبيرهم يغذى النار بالوقود ، وزبائن جهنم يحملهم الحراس ويقذفون بهم فى اللهب .

وأفقت من نومى فزعا مرتاعا .. فوجدت عزرائيل أمامى يبتسم فى رفق ، وأخبرنى أنه قد بر بوعده فحشر اسمى فى أول كشف ، وأنه على استعداد للصعود بى الى السماء .

ولم يبد على الفرح الذى كان ينتظره عزرائيل .. فلم يخف تعجبه ، وسألنى عن العلة .. فقصصت عليه ما رأيته فى الحلم وقلت له انى أخشى أن يتحقق .

وفكر عزرائيل قليلا ثم أجاب :

– سأرد اليك جميل صنيعك .. وأصنع معك معروفا لم أصنعه مع أحد سواك من البشر ، فأجعلك تضمن ألا يتحقق ذلك الحلم الذى تخشاه .. سأمهلك يومين تكفر فيهما عما عملت من سيئات حتى تصعد الى السماء طاهر الذيل « ضامن جنة » .

وكدت أرقص من الفرح .. اذ لم يكن فى الامكان أبدع مما كان وما سيكون .. ترى من غيرى من البشر أستطاع أن يصعد الى السماء وهو

« ضامن جنة » ؟ من غيرى أعطى له الفرصة ليمحو سيئاته ويثقل كفة حسناته ؟ ! .

وهجمت على عزرائيل أوسعه لثما وتقبيلا ، وسألته أن يسرع فيحضر لى من « التربى » صفيحة من الماء حتى أتوضأ منها وأقضى اليومين الباقين من العمر فى الصلاة والتسبيح بحمد الله .

ونظر الى عزرائيل فى ذهول وسخرية وقال هازئا :

– أيها الأحمق ، أظننت الصلاة وحدها كافية لادخالك الجنة ؟ ! ! ان خير ما فى الصلاة أنها تحض على فعل الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر .. فخير لك أن تغادر مضجعك لتغيث الملهوف .. وتعطى المحتاج .. وتواسى الحزين والمفجوع .. وتفك ضيق المكروب والملتاع .. الدنيا تعج بهؤلاء .. فاخرج اليهم ، وافعل ما استطعت لهم .. ثم عد الى وأنا كفيل بمصيرك .

ونفذ حديثه الى نفس ورأيته على حق .. فخرجت الى الدنيا .. وفعلت ما أشار به على ، ثم عدت بعد يومين الى المضجع حيث تواعدنا على اللقاء .

ولقينى عزرائيل راضيا مغتبطا .. وأخبرنى أنه على استعداد للصعود بى .. فتركت الجسد فى قبره الموحش وصعدت معه الى السماء .

وأحسست فى هذه المرة أننى أخف مما كنت فى المرة السابقة وأكثر انشراحا .. وشعرت بفيض من السعادة يغمرنى .. فقد حييت يومين فى آخر العمر .. خيرا من طيلة العمر ...